نوران سلام

عندما يكون الكذب صانع الحقائق الوحيد

D N A

رواية

فريق متميزون
E-BOOK

دَارْ دَوِّنْ

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

D N A

(عندما يكون الكذب صانع الحقائق الوحيد)

رواية..

الكاتبة: نوران سلام

عن الرواية..

«فاتن» امرأة عادية.. «ياسر» رجل عادي.. تقابل حضرتك أمثالهما كل يوم؛ طبيب يعالجك، سيدة تجلس بجانبك في القطار، رجل يرتدي بدلة فاخرة تخفي شحوماً زحفت حول خصره عبر السنين، أمّ تنتظر ابنها في فناء المدرسة... لا يعرّف أي منهما نفسه كمجرم. ومع ذلك فهما مجرمان، خالفا القانون بدم بارد، وأفلتا. افتضح أمرهما في النهاية، لكنهما غير نادمين؛ ففي جريمة كهذه، لا مجال للندم في هذه الرواية تُرتكب جريمة قانونية لا يمكن لأحد محاسبة منفذيها ولا يمكن تقفي أثارها .. جريمة مبررة لا يشعر مرتكبوها بالذنب ولا يشعروا بالندم . جريمة تخبرنا أن هناك حقائق لا يمكن اثباتها وهناك زيف سهل اثباته .. رواية واقعية لغتها رائقة .. تُفتش في النفس عن حالة من اليقظة والسلام الداخلي ، وتبحث عن الحقيقة المخفية وراء الاحداث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء

إلى زوجي،

تحذير: الكلمات التالية لم تراجعها عيناك قبل الطباعة:

«إلى إيمانك الغريب بي

إلى إيثارك.. وأفكارك

لولاك ما كانت كل الأشياء الرائعة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١-

باسبور كاش (إنجليزي ومصري)، ملابس لها، ملابس للبيبي المنتظر.. تسترق نظرة إلى ساعة الحائط. تقذف بالهاتف المحمول في الحقيبة وتشد السحّاب. تدب على السلالم بذلك الثقل الحذر الذي تفرضه بطن متدلية كبطنها. تضع الطعام في الثلاجة، تتأكد أن المكواة مطفأة، تحدق في كومة الغسيل، نسيت أن تطويه! تسمع صفير سيارة تقف بالخارج. تلقي نظرة عبر نافذة المطبخ.. وصلت سيارة الأجرة... لا وقت للغسيل. ثم أي غسيل أحمق هذا؟ لن يجدها ياسر عندما يعود الليلة، من يعبأ الآن لأمر الغسيل؟!

السائق يدق الجرس. تصيح:

- «حاضر! دقيقة!»

الآن إلى الرسالة.. لا مفر من الرسالة. تجلس وتكتب: «ياسر، أنا خايفة.. أولد هنا ازاي بس لوحدي.. أنا رحت مصر.. سامحني».

تقرأ ما كتبته. ما كل هذا الهوان؟ لماذا تتصنّع الجهل؟ تمزق الورقة. تكتب: «أنا عرفت كل حاجة.. لقيت الموبايل التاني وقريت الرسايل. أنا في بيت أبويا. ابعت لي ورقتي».

تقرأ وتمزق وتكتب:

«ابننا هيتكتب في شهادة ميلاده مصري، زي أبوه وأمه. ما تخافش، مستشفيات مصر مش كلها قطط وتعابين وحلل محشي، وتغور لندن بنضافتها اللي خليتك تستغباني وتخوّني».

يدق الجرس من جديد. تمزق هذه الورقة أيضا وتلتقط القطع المتناثرة فتدسّها في جيب معطفها. تجلب ورقة جديدة وتحملق فيها بذعر قبل أن تسدد لها طعنات متتالية بالقلم: «أنا في مصر».

تصفعها على الطاولة وتلتقط الحقيبة وتجر قدميها للخارج قبل أن تجبن. تنزلق في المقعد الخلفي من السيارة، تحاول أن تسيطر على صوتها وهي تقول: - مطار «هيثرو» لو سمحت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢-

جال ياسر بنظره وابتسم، كل من حوله في القطار أناس متحضرون: من يقرأ، من يهمس في هاتفه، من ينام، من يتصنع النوم. تحضر حقيقي. لا أحد هنا يلقي في حِجْرك بكتيبات مصفرّة عن عذاب القبر أو مناديل ورقية رثة أو سكر بنات مسوّس ويرهبك لتبتاع منه، لا أحد يقرفص في وسط القطار ويشعل وابور جاز ويقلي الطعمية.

أخرج من حقيبته صحيفة اليوم. لا يقرأ ياسر الصحف الشعبية. لا يسمح لنفسه أن يشاهَد سوى وهو يقرأ الصحف المحترمة.. كـ«الفاينانشيال تايمز» مثلاً. ماذا يملك المرء منا سوى مظهره أمام الناس؟ فرد الصحيفة أمامه بحركة استعراضية وتلصّص من فوقها على الجالس قبالته، يتلمس وقعها عليه. لكن الرجل ينظر أمامه في ثبات. منظره لافت، خمسيني أنيق يحيط عنقه بمنديل من الحرير، كهؤلاء الإنجليز الذين يصطادون الثعالب ويدخنون الپايپ، وجهه الوردي من ذلك الصنف الذي يحمرّ لأتفه سبب.

هُيّئ له أن الرجل على وشك أن يوجّه له الكلام، فقد راح يلقي على ياسر نظرات خاطفة متتالية، وكأنه يهمّ أن يحادثه. معقول؟! طيلة عام كامل هو عمر ياسر في بريطانيا لم يوجّه له إنسي إنجليزي كلمة واحدة إلا للضرورة القصوى، زميل، أو مريض، أو إداري في المستشفى، أو محصل التذاكر. أحس الآن بإثارة شديدة، تظاهر بأنه منهمك في القراءة وتأهب لحوار طويل ثري مفيد. ترى هل يسأله الرجل عن حضارة الشرق العظيم؟ هل سيُعرب له عن شغفه بالفراعنة؟ يجب أن يرتب له ياسر رحلة لمصر! ستعكس ردود ياسر اتّقاد ذهنه وخفة دمه، لن يضنّ برأيه في قضية زيادة المهاجرين في بريطانيا التي أثارها مذيع الـ«بي بي سي» أمس (وياسر بالمناسبة متحمس جداً لوقف سيل المهاجرين). وبدوره، سيسأل ياسر محدثه بدماثة عن رياضة صيد الثعالب التي من الواضح أن الرجل يعشقها. سيجعله ممتناً أنه بادره بالحديث.

حدق الرجل فيه قليلاً ثم استدار وهتف مخاطباً الراكب الوحيد الآخر في هذه العربة:

- «من فضلك! هل يتوقف هذا القطار في رامزجيت على حد علمك؟».

صعق ياسر أن يتجاوزه جاره ويوجه سؤالاً تافهاً كهذا إلى شخص يجلس في آخر الدنيا. حمد الله أن فاتن ليست معه، لو كانت لقالت فوراً إن الخواجة تجاهله عمداً، افترض أن الراكب الأجنبي لن يعرف الإجابة.. أو ربما حتى لن يفهم السؤال. لطالما شك ياسر في أن زوجته مصابة بعقدة دونية وپارانويا

مستحكمة، لكن.. هل من تفسير آخر؟ استدار فرأى الراكب البعيد -شاب صغير أشعث- يبعد عن أذنه سماعة ضخمة تصدح عبرها الموسيقى بصخب ثم يقول: «آسف، ليس لديّ فكرة» قبل أن يدع السماعة تصفع أذنه من جديد.

رفع ياسر الصحيفة بغيظ واختبأ وراءها، لكنه لم يطق تجاهل ما حدث، أخفضها بجلبة وحدّق في جاره مباشرة، ثم عوج لسانه قدر الإمكان وقال بأفضل لكنة عنده:

- «في الواقع هذا صحيح.. رامزجيت هي المحطة الأخيرة».

طالعه الرجل بذهول، ووجْه تحوّل من الحمرة إلى الشحوب إلى الحمرة من جديد في نفس اللحظة. قال ببطء وبصوت أعلى مما تقتضيه الضرورة:

- «شكرا جزيلاً ».

عاد ياسر لجريدته منتشياً أن لقّن الرجل درساً وخرج منتصراً في هذه الجولة من معركة الحياة. رنّ هاتف في العربة التالية، وعبر الباب الزجاجي الفاصل بين العربتين حملقت به شقراء ساحرة ثم ابتسمت. أحسّ أن الدنيا كلها تبتسم ولم يبخل هو الآخر بابتسامة دافئة ما لبثت أن تبددت عندما أدرك أنها كانت تنظر مصادفة باتجاهه وهي ترد على الهاتف. وضع الجريدة جانباً وأخرج هاتفه وبعث برسالة لفاتن: «طابخة إيه؟ ردي برسالة ما تتصليش.. مش هينفع أرد، اتعرفت على ناس في القطر لزقة.. منهم واحدة مصممة تعزمني على العشا».

أخرج من حقيبته مرجعاً طبياً سميناً، ألقاه على الطاولة المشتركة بينه وبين صائد الثعالب، فأحدث الكتاب جلبة سُرّ لها ياسر، سيلاحظ جاره الآن أن ياسر ليس متحدثاً ممتازاً للإنجليزية فحسب، بل طبيباً على سنّ ورمح. مطلوب منه أن ينشر بحثاً في أي إصدار طبي معتمد قريباً.. وإلا سيكون موقفه حرجاً أمام المدير، لكن أنّى له بالتركيز وهو يكاد يجن ليعرف.. هل وجدت فاتن الهاتف الذي تظاهر بنسيانه في السيارة؟ هل قرأت الرسائل الوهمية التي كتبها بنفسه وأرسلها إلى رقم قديم خارج الخدمة؟ لا يفخر كثيراً بما فعل لكن من الضروري أن تفهم فاتن قيمة زوجها. لقد لاحظ أنها باتت دائمة الشكوى كثيرة الطلبات، «عايزة أولد في مصر، ما فتحتش بقّي طول اليوم، الناس هنا ساقعين، جارتي بتبصلي من فوق لتحت، كل يوم نطرة وبرد». يعرف أنها في شهرها التاسع وأن مخها يسبح حالياً في بركة هرمونات لكن هذا ليس عذراً، إن رضخ الرجل للابتزاز العاطفي مرة يكون مصيره السقوط الحر للأبد.

تفحّص الهاتف واندهش أن فاتن لم ترد على الرسالة. اتصل بهاتف البيت. لا ردّ. ثم اتصل بهاتفها المحمول رغم أن سعر الدقيقة عشرون بنسا كاملة، لكن هاتفها مغلق. مغلق؟! ما الذي يعنيه هذا؟

أين ذهبت هذه؟

ما الذي يعنيه هذا إن شاء الله؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣-

مطار القاهرة كعهد فاتن به في المرة السابقة؛ يوم سافرت عبره الى إنجلترا العام الماضي. يومها شهقت الحاجة أسمهان، التي أتت خصيصاً من أطراف المنصورة لتودع ابنتها: «ياختيبي.. بروفة يوم الحشر ربنا يستر على المسلمين! ما تعتليش هم.. قولي يا لطيف تلاتة وتلاتين مرة وكل البيبان المقفولة تنفتح».

اليوم شهقت فاتن للمشهد في صالة الوصول. أمام شبابيك الجوازات تتلوى الطوابير كالثعابين، وكأن مائة طائرة حطت على غفلة. دخان السجائر يملأ المكان. من حين لآخر تندلع مشاجرات إثر محاولات لتجاوز الدور. الضجر يعلو وجوه الناس، يتبدد لثوانٍ عندما تقع أعينهم على بطن فاتن المنتفخة وظهرها المقوس للخلف وخصلات شعرها الشعثاء التي تنبجس من تحت الحجاب.

تتصبب فاتن عرقاً. تحلحل ربطة الحجاب وتضع الحقيبة على الأرض، وتتمنى لو تضع جنينها أيضاً. تتمتم «يا لطيف» ثلاثاً وثلاثين مرة. يلحظها ضابط الجوازات الذي علم صباح اليوم فقط بأنه سيصير أباً بعد شهور سبعة، ينادي:

- «مدام، يا مدام! اتفضلي. وسعوا لها يا جماعة إنتو مش شايفين؟»

يحمل عنها الواقف وراءها حقيبتها حتى مقدمة الصف. يحييها الضابط بابتسامة واسعة ويقول:

- «طيارة لندن؟ سمحولك ازاي تسافري وانتي كده؟ كويس إن محدش خد باله!».

يختم جواز السفر ويقول:

- «حمد الله على السلامة».

يجب أن تروي لأمها هذه المعجزة الصغيرة.

بالانتظار خارج المطار سرب طيور جارحة -عشراتٌ من الرجال ينقضّون على الخارجين من المبنى، يعرّف كلٌّ نفسه بصوت خافت وجفون مرتعشة كـ«سائق أجرة مسجّل». مظهرهم يوحي بأشياء كثيرة ليس من بينها الثقة.

في النهاية انتقت فاتن رجلاً مسناً، استجمعت شجاعتها وقالت:

- «ميت أبو النور» المنصورة، ومش هادفع أكتر من 100 جنيه. وباقولك من دلوقتي يا أسطى باشا.. ما تركّبش معايا حد.

ابتسم بتؤدة مَن لم يعد يدهشه شيء وقال:

- يا بنتي بالراحة علينا، ده أنا عشان أوصل العباسية باخد 150!

طالعها من تحت لفوق ثم غمغم: اركبي اركبي.. مش هنختلف إن شاء الرحمن.

عندما تجاوزت سيارة الأجرة الطريق الدائري بمطباته الجسورة، التي تقولها في وجهك: «أنا واقعك.. تعامل مع الأمر»، وباتت في وسط طريق المنصورة بمطباته الأكثر دهاء، التي يختبئ الواحد منها حيث لا تتوقع فيفعل بسلسلة ظهرك الأفاعيل كانت فاتن تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أنها كبقية البشر تمتلك عظمة حوض؛ جزء من جسدها ظلّ وجوده فيما مضى من عمرها مقتصراً على كتب التشريح التي تجرعتها في كلية الطب. الآن، ها هنا في هذا التاكسي، وتماماً تحت اللافتة التي تقول: «المنصورة ٦٠ كم» أعلنت تلك النقطة من هيكل فاتن العظمي أنها تبحث جدياً خيار الانشطار نصفين.

نظرت في ساعة يدها وحسبت فرق التوقيت. سيكون ياسر الآن قد وصل البيت ولم يجدها. أحسّت ببرودة تجتاح جوفها من هول ما فعلت، تمتمت بصوت مسموع: «أنا هربت وسبت البيت لجوزي»، كان يجب أن تسمعها بأذنها كي تصدق؛ لأن مطبات الجمهورية كلها لا تكفي لإقناعها بأنها الآن هنا، في مصر، أن الجرأة أخيراً واتتها لتهرب. رمقها السائق في المرآة بلا اكتراث.

خارج النافذة تعاقبت الحقول والنخيل والحمير والفلاحون المقرفصون أمام أقفاص فاكهة، لكن فاتن لا ترى شيئاً من هذا، لا ترى سوى شاشة هاتف لم تكن تعرف عنه شيئاً تضيء بكلمات سافلة «بحبك.. عايز أشوفك تاني.. المرة الجاية مافيش لعب عيال.. مافيش غير لعب كبار».

وأخيراً ازدادت الطرق وعورةً والأعين اتساعاً لرؤية التاكسي القاهري المحمّل بحقيبة سفر... ولاحت من بعيد مئذنة مسجد السلام، أول معالم قرية «ميت أبو النور».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٤-

عندما اجتاز جنين فاتن شهره الثالث أجلستها ال«ميدوايف» (القابلة) في مكتبها، سيدة أربعينية جهورية الصوت، بالغة الحماس بلا مبرر مفهوم، تعقد شعرها الأصفر فوق رأسها وترتدي نظارة سميكة تبدو خلفها عيناها الزرقاوان متضخمتين. قالت: «تهانيّ يا دكتورة بحيري.. اجتزتِ المرحلة الأولى الحرجة من الحمل! حان الآن وقت وضع خطة الولادة!».

- «خطة الولادة؟!!»

- «تماماً! سنكتب كل شيء ونُدخله في ملفك ويصبح جاهزاً. عندما تحين لحظة الحقيقة صدقيني، سيكون آخر ما تريدين سماعه وأنت تلهثين وتتحممين في عرقك سؤالاً أخرق من قبيل: قهوة أم شاي؟ إذا كان هناك وقت مناسب للأسئلة الحمقاء فهو الآن!».

لم تفهم فاتن -التي لم يسبق لها الإنجاب في بريطانيا ولا خارجها- علاقة الشاي بالولادة. ثم إن إنجليزيتها الضعيفة لن تسعفها كي تبادل محدثتها حماساً بحماس. لذا اكتفت بالصمت والانتظار. فتحت «الميدوايف» ملفاً، وأخذت تقذف فاتن بالأسئلة وتدوّن الإجابات. وبعد عشر دقائق وضعت قلمها وخلعت نظارتها، وأراحت ظهرها إلى الوراء:

- «عظيم! أنجزنا اليوم شيئاً مهماً! ها هي ذي: خطة فاتن البحيري للولادة! دعيني أقرؤها عليك الآن»، أطلقت سعلة استعداد وقرأت بجدية بالغة ذكّرت فاتن بتسجيلات التلفزيون المصري القديمة لزعماء راحلين يلقون ببيانات مهمة:

«أثناء الولادة تودّ فاتن البحيري أن يناديها الجميع بفاتن بلا ألقاب - تريد أن تكون الولادة طبيعية - وألا يلجأ الطبيب للولادة القيصرية إلا بعد أن يشرح لها السبب - تفضل فاتن البحيري الاكتفاء بالغاز الضاحك لتخفيف الألم، وإن لم يفِ بالغرض فستقبل حقنة «بيثيدين» واحدة فقط كي لا يتضرر الجنين - فاتن البحيري تفضّل أن تطل غرفة الولادة على الجنوب كي تكون مشمسة - وبما أنها تحمل جنيناً ذكراً فهي تختار اللون الأزرق للبطانية وملاءة السرير - دكتورة فاتن تريد الاستماع لـ«موتسارت» وهي تلد (شكراً يا دكتورة لقبول اقتراحي هذا، صدّقيني لن تندمي!) - وسيكون معها في غرفة الولادة الأشخاص التالية أسماؤهم: ميدوايف باميلا ماثيوز (أنا!) وربما زوجها دكتور ياسر البحيري (إذا كان مجازاً من العمل) - بعد الولادة تود فاتن البحيري أن تحتضن البيبي فوراً وقبل أن يتحمم - ويهمها أن تحاول إرضاعه فوراً كذلك (كتبتُ بوضوح هنا أنه لا يجب أن تتعدى المدة بين الولادة وبين أول رضعة

خمس دقائق) - وأخيراً، تفضل فاتن بعد الولادة أن تشرب الشاي (بالحليب ودون سكر)، وأن يُعرض عليها بعض الكعك (ستقرر حينها إن كانت تشتهيه). رائع دكتورة بحيري! رائع!!».

لا تدري فاتن لماذا تذكرت تلك الواقعة الآن، وقد مرّ عليها نصف عام، وما الذي ذكّرها بها هنا في «ميت أبو النور».. على بعد آلاف الأميال من بريطانيا والميدوايف والكعك الإنجليزي. وكيف أصلاً تقفز ذكرى هزلية كهذه إلى مقدمة رأس متخم بالقلق على الجنين (والفزع من الولادة) والخوف على الزواج (والغضب من الزوج) والذعر من ذلك الطرق العنيف أسفل الظهر.

ربما ما ذكّرها كان سؤال أمها لها وهي تغوص في الكرسي الخوص المقابل بعد وصول فاتن بنحو الساعة إن كانت تريد شاياً بالحليب أم بدونه. رغم إجهاد السفر اكتفت فاتن بابتسامة متعبة على سبيل الرد.

- «ضحكيني معاكي يا بنتي؟».

- «مافيش يا ست الكل. مبسوطة إني شايفاكي.. مش مصدقة إني هنا في مصر!».

- «انتي اللي مش مصدقة؟»

مدّت الحاجة أسمهان كفاً ناعماً تركي الأصل فأخذت الصينية من الخادمة فاطمة، أعطتها تعليمات بخصوص الطعام وصرفتها، وراحت تثرثر وهي تصبّ الشاي:

- «ده البت شيماء بنت مليجي جت تجري عليا وانا قاعدة هنا اهو في الشكمة.. وتصرخ بعلو حسها: يا حاجة أسمهان.. الدكتورة جت.. الدكتورة جت! وانا أقول مال البت المخبوطة دي عاملة زيطة وزنبليطة. دكتورة إيه وأبصر إيه. ده الوحدة مافهاش غير حُكَما رجالة. أتابيها قصدها عليكي! أبص كده ما اشوفش إلا تاكس من بتوع مصر وانتي راكبة فيه، وبطنك اللهم صلي على النبي عشرة متر قدام!».

لم تقل فاتن شيئاً، اكتفت بالتحديق في كوب الشاي الذي تسنده على حجرها. صاحت أسمهان:

- «عمل فيكي إيه المنيل على عينه جوزك؟ هو فاكر عشان أبوكي مات؟ لازمن ابن نعمات يعرف إن أمك بميت راجل!».

- «بيخونّي.. لقيت محمول في العربية ما عرفش عنه حاجة، ولقيته باعت رسايل كلها لنفس النمرة، بحبك وأبصر إيه وقلة أدب ووساخة».

- «إخص! الواد ده عمره ما نزلي من زور! طب وانتي هتعملي إيه؟».

- «سبتله البيت من غير ما يعرف. زمانه بقى دلوقتي عرف وانقهر».

- «يخرب عقلك يا بت.. إنتي جاية طفشانة من ورا جوزك؟!».

- «يعني كنتي عايزاني أفضل قاعداله بعد ما عرفت؟».

- «آه طبعا تفضلي قاعدة ومستربعة في بيتك، أمال تسيبيه للي تسوى واللي ما تسواش؟ ربنا يستر بقى! ده إنتي على وش ولادة.. وإحنا هنا ولايا لوحدينا!».

- «ولايا؟ مش كنتي بميت راجل من شوية؟ وبعدين يبقى هو اللي بيخونّي وانا اللي قاعدة هنا باولول؟ أنا لازم أتطلق!».

- «ياختيييييي!» رفعت أسمهان فتحة ثوبها وتفلت في صدرها ثلاث مرات.. «دي عين وصابتنا.. ماتشمتش حد فينا يا رب! باقولك إيه يا بنتي، جوزك عرف إنك شفتي الرسايل دي؟».

- «لأ، أنا لميت هدومي وجيت على طول».

- «طب الحمد لله، إنتي تقعدي هنا في بيت أبوكي معززة مكرمة، ولما تقومي بالسلامة نبقى نشوف لنا صرفة».

خرجت فاطمة معلنة أن الطعام على المائدة. حثت أسمهان ابنتها على القيام لتناول ما يسند طولها بعد إرهاق السفر، وبعد أن فرغتا من الأكل قالت فاتن:

- «يا ماما أنا مش طايقة أرجع تاني.. موضوع الرسايل ده حصل في الآخر بس، إنما أنا مخنوقة منه من زمان».

قشّرت أسمهان ثمرة «يوسف أفندي» وفلقتها نصفين وضعتهما أمام ابنتها وهي تقول:

- «ليه كفالله الشر؟ هو بيعاملك وحش؟ ده إنتي بنت العمدة... ودكتورة زيك زيه».

- «مش زيي زيه ولا حاجة يا ماما!».

- «كلام إيه الفارغ ده؟».

- «الشهادة اللي معايا من مصر دي أبلّها وأشرب ميتها أحسن. هناك قالولي لازم أعمل معادلة».

- «طب وماله؟ ما تعملي!».

- «دخلت امتحان المعادلة تلات مرات السنة اللي فاتت دي وسقطت. وكل مرة ياسر يسوّد عيشتي ويعايرني. لا وآخرة المتمة إيه.. عايزني أقلع الحجاب وامشي عريانة زي الإنجليز، ومستعر من منظري، والحمل فشكلك وما بتدخّليش فلوس وفاشلة...».

- «فشل أما يضرب عينه! يعني ابن نعمات مش قادر يقوم بمصاريف بيته؟ رجالة آخر زمن! إنما انتي بتسقطي ازاي يا بنتي؟ حقة غريبة! ده انتي طول عمرك متفوقة!».

- «متفوقة؟! يا ماما انتو دخلتوني طب غصب عني. ومن أول يوم لآخر يوم وانا باعافر في الكلية دي وكارهة نفسي. وكان بابا الله يرحمه كل ما اطلع بمادة ولا اتنين يقول لي خدي الشهادة بس واقعدي في البيت ويبقى اسم بنتنا بقت دكتورة.. دلوقتي عايزاني أذاكر تاني؟! وفين... في لندن.. لا معلش.. أنا طول عمري مش عايزة حاجة غير إني أتجوز وأقعد في البيت أجيب عيال وأربيها.. وياسر كان عامل روحه موافق لغاية ما رحنا المدعوقة لندن والفلوس قصّرت معاه».

وضعت أسمهان كلتا يديها على رأسها وأحست بضغط دمها يرتفع:

- «يا لطيف! يا لطيف يا لطيف..».

- «آي آي آآآي..».

- «ما لك يا فاتن؟ إنتي بتولدي ولا إيه؟».

- «أنا إيش عرّفني بس؟ ضهري هيموتني، خايفة أكون باولد وانا مش عارفة».

لدهشة فاتن ضحكت أمها:

- «تولدي وانتي مش عارفة ازاي يا بنتي بس؟ أمال دكتورة ازاي بصحيح؟! ده ابن نعمات باينه معاه حق! بس يا بت بس.. باضحّك معاكي ما تاخديش على خاطرك مني. ما تعتليش هم.. ساعة الولادة هتعرفي لوحدك، من غير ما تسأليني ومن غير كلية طب ولا علام خالص. قومي ريّحيلك شوية والصباح رباح، هاخدك على أكبر دكتور فيكي يا منصورة».

بعد انتصاف تلك الليلة بقليل تحوّل الطرق في ظهر فاتن لقصف خليق بقاذفة B52. استيقظت من كابوس ما تبخّرت تفاصيله بمجرد أن رفعت رأسها مخلفة دائرة عرق واسعة على الوسادة. استغرقت بعض الوقت لتستوعب أنها ليست في شقتها الضيقة في شمال لندن، بل في غرفتها في

«ميت أبو النور»، ثم انقضّ عليها ألم اعتصر رحمها وهدد بكسر ظهرها.. وشقّت صرختها السكون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٥-

انطلق في رأس فاتن صوت الـ(ميدوايف) كما كان وهي تقرأ خطة الولادة، سمعتها تقول بصرامة كزعيم راحل يلقى بياناً مهماً: «فاتن البحيري أتاها المخاض. فاتن البحيري عرفت ذلك وحدها دون أن تسأل أحداً»...

ولكن.. طبقا لـ«خطة الولادة» لا يجب أن يكون هناك نزيف بهذه الغزارة أو ألم بهذا العنف. لا يجب أن تدور الحاجّة أسمهان حول نفسها في عز الليل ككلب يطارد ذيله وهي تبحث عن سيارة تقلّهما إلى المستشفى. ثم لا يجب أن يتقرر في نصف الطريق -على خلفية صراخ فاتن المخيف- أن المسألة لن تحتمل قطع المسافة إلى المنصورة، وأنه لا خيار سوى التوجه إلى الوحدة الصحية المتهالكة التي لا يرتادها كبار الشأن أو صغاره، زوارها كلهم منعدمو الشأن تماماً...

كما أن الخطة تقول إن غرفة الولادة يجب أن تكون مشمسة ونظيفة، والأهم أن تكون غرفة أصلاً، لا أن تتم الولادة في ردهة قذرة في مدخل البناء المتداعي...

كان يفترض أن تحدّق فاتن أثناء ولادتها في ورق حائط أزرق مشبح بصور السحابات البيضاء كالتي تزين الغرف في مستشفى «پرينسس رويال»، لا

في وجه حكيمة ضجرة ذات أظافر متسخة ورقبة يعلوها الصدأ...

وكان يُفترض كذلك أن تسمع الموسيقى الكلاسيكية، لا شخط طبيب مراهق يعاني من حب الشباب: «غوروا جيبو أكياس دم! وانتي ياختي، بطلي صريخ صدعتينيا، إحنا داخلين على استئصال رحم»..

بدلاً من الشاي بالحليب بدون سكر (والكعك الذي ستقرر حينها إن كانت تشتهيه) تُركت فاتن تتلوّى من الظمأ. وفي الوقت الذي كان ياسر يفترض أن يلتقط صوراً للوليد من كل الزوايا كانت الحاجة أسمهان تخبط بيدها (من زاوية واحدة فقط) على رأسها وتندب:

- «بنتي هتروح مني يا ناس.. بنتي هتروح».

- «ماعندناش أكياس دم يا دكتور.. الوزارة ما بعتتش..».

- «غوري يا بت من وشي اتصرفي».

- «يعني أعمل إيه يا ناس؟ أنا حيالله الممرضة، وفيه حالة ولادة تانية شرفت دلوقتي أهو».

- «باقولك إيه يا بت انتي.. والصباح الجديد ده لاحولك للتحقيق! باقولك اتصرفي.. ابعتو هاتوا دم من المنصورة. ولا أقولك.. ابعتو الحالة ذات أم نفسها المنصورة. يللا يا ست من هنا.. خدي بنتك وامشوا. لو بيّتت هنا مش هيطلع عليها نهار. إيه المرار الطافح ده!».

وجدت فاتن صوتها أخيراً وقالت بوهن:

- «ابني.. ابني يا ماما!».

- «الواد! الواد راح فين؟ ناخده معانا المنصورة ازاي؟ يا لطيف يا لطيف يا لطيف يا...»

- «الله! استني استني! مش انتي الحاجة أسمهان برضه؟ الحق يا دكتور! دي الحاجة أسمهان مرات العمدة حجازي الله يرحمه!».

- «آه يا بنتي أنا. ودي بسلامتها بنتي الدكتورة. بنتي دي دكتورة زيك يا ابني! هي ما لها؟! وشها زي اللمونة.. شكلها بتطلع في الروح!».

انسحبت الدماء من وجه الطبيب تماماً حتى صارت حبوب الشباب ذاتها بيضاء، قال: «دكتورة؟! أنا اسف.. اللي ما يعرفك يجهلك. طب ما رحتوش مستشفى مجهّز ليه من الأول؟ ده إحنا ما بيجيلناش غير المزارعين. أنا هاروح معاكو المنصورة بنفسي.. بس دبروا لنا عربية».

- «سمّي يا حاجّة. ابنكو أهو، ما لحقتش أحمّيه، بس لفيتهولكو في أحسن بطانية عندنا».

لم تسرْ ولادة فاتن طبقاً للخطة، بل الأحرى القول إن ولادة فاتن بدأت صعبة وانتهت كارثية، فبفعل النزيف والرحلة الشاقة للمنصورة في سيارة بيجو سبعة راكب أصيبت فاتن بتلوّث خارجي حرمها من وضع الجلوس طيلة خمسين يوماً، وبتهتّك داخلي لم يُجدِ معه في النهاية سوى استئصال الرحم.

في خضمّ كل هذا لم يكن للوليد (أول وآخر من كُتب له سُكنى ذلك الرحم) نصيب في بداية سعيدة في الحياة. فالأمّ عليلة وغير قادرة على الإرضاع ولا تفكّر سوى في ميلة بختها.. أتواجه خيانة زوجها أم تتجاهلها؟ والجدة -عفية وصغيرة صحيح- لكن يومها ضائع في نقل فاتن للأطباء أو استدعائهم عندها. برزت للأمر إذن الخادمة العجوز فاطمة -مسمار البيت كما كان يسميها العمدة- التي تولّت تلبية احتياجات الصغير وقد سمّي «آدم» تنفيذا لأمر أبيه كي يسهل على الإنجليز نطقه.

شهادةً للحق كان آدم رضيعاً هادئاً، وكأنه لا يريد إضافة المزيد من النوائب لما هو موجود بالفعل. ظلّ صابراً على ذلك الاستقبال الفاتر إلى أن تعافت أمه،

وقررت أن تسمع كلام جدته العاقل فتتصنع الجهل بما نما إلى علمها وتدعو الله ألا يتكرر ثانية.

وبالتدريج انطفأ غضب الدكتور ياسر البحيري من هروب زوجته الكبير فدعاها للعودة.

وبالتالي، فقد كان أنه لما بلغ آدم من العمر ستين يوماً حملته أمه واستقلّت طائرة أعادتها مرة أخرى لشقة A26 ويدمور ستريت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٦-

مـر على ذلك اليوم ست سنوات رسبت فيها فاتن ثلاث مرات أخريات في امتحان المعادلة. ست سنوات لم ترَ فيها أسمهان ابنتها ولا حفيدها اللهم إلا عبر الإنترنت، فقد استنفدت فاتن على ما يبدو مخزونها من الجرأة ولم تقدر أن تثير موضوع زيارة مصر مع زوجها ولا حتى من بعيد. كما انتقلت أسرة الدكتور ياسر البحيري إلى بيت صغير في نفس الشارع، والتحق الصغير آدم بمدرسة الحي، وأضيفت لقائمة منغصات الحياة مشكلة جديدة لم تتصورها فاتن من قبل.

في نهاية اليوم الدراسي تأتي الأمهات لتسلم أبنائهن من المدرسة. أمر بسيط ومباشر ويسير.

لكن ليس بالنسبة لفاتن؛ فـ«رحلة فاتن في فناء المدرسة» قصة معاناة من ثلاثة فصول:

في البداية كانت تتوسط الفناء، تختار نقطة استراتيجية تتيح لها الانضمام لأي دائرة ثرثرة تشكّلها الأمهات. لكن الدوائر كانت تتشكّل في كل مرة بحيث تبقى فاتن خارجها، صامتة كتمثال أبله بينما تتعالى الضحكات حولها. سعت حثيثاً إلى التودد للأخريات، جرّبت الاتفاق مع كل ما يقلن، ثم جربت الاعتراض على كل ما يقلن. وفي لحظة فارقة رضخت لضغوط ياسر التي لم تنقطع منذ وطئت قدماها بلاد الملكة إليزابيث... فخلعت الحجاب. أحسّت أنها تمكّنت أخيراً من فعل شيء يُرضي زوجها، ولو أن التأثير زال في غضون ساعات.

أما هي فكانت أبعد ما يمكن عن الرضا، حملقت في المرآة ذات صباح وتمتمت لآدم الذي كان يقفز خلفها على السرير: «من النهارده شكلي في الشارع هيبقى هو هواه شكلي في البيت!». امتلأ فمها بسائل مرير وراقبت السعادة وهي تنسحب من عينيها.. لكنها ابتلعت مرارتها وخرجت. تجاهلت لسعة البرد لأذنيها، وعندما وصلت للمدرسة أذهلها أن شيئاً لم يتغير. كل ما حدث أن إحداهن رمقتها باندهاش، ثم قالت:

- «Oh! you have hair!» ثم تركتها ومضت.

لم يكافئها أحد على تنازلها الكبير.

قررت أن تتقهقر فتنتظر آدم في المؤخرة، في أبعد نقطة ممكنة عن الجميع. لكن شعورها بالعزلة تفاقم. فالفناء بطوله يمتد أمامها، أحست كمن يشاهد فيلماً مرحاً وهو قابع وحده في غرفة كئيبة، مضت الأسابيع وتشكلت أمام عينيها الصداقات بين من كُنّ في بداية العام الدراسي غريبات، أضحى الوضع

لا يُطاق. باتت تختنق لمجرد التفكير في أن عليها تسلم آدم من المدرسة، وصار غاية أملها أن تبلغ عطلة نهاية الأسبوع.

ثم تفتّق ذهنها عن أن تُغيّر موقعها للمقدمة، تدخل الفناء فلا تحيي أحداً

ولا يحييها أحد، تخترق الصفوف كشبح لا يُرى حتى يصبح الجميع وراءها، ثم تُبقي عينيها معلقتين على الباب الموصد حتى ينفتح.

ثم، ولأن الدنيا تذكّرك من حين لآخر بأنها قد تقبل عليك إن شاءت، كان أن خرج آدم من المدرسة ذات يوم يحمل كيساً مليئاً بالبندق ويقفز بحماس. هتف: «أنا وسام رايحين الجنينة نأكّل السناجب!» نظرت فإذا بوالدة سام -«زينة» كما قدّمت نفسها- تقف مبتسمة خلف الولدين وأمامها عربة بيبي بها طفلة نائمة. سيدة في عمر فاتن، ممتلئة بعض الشيء، ترتدي بنطالاً من الجينز وتي شيرت أسود وحذاءً رياضياً، أنفها مغطى بنمش لطيف، وجهها مبرْوَز بشعر برتقالي أملس، هيئتها بشكل عام تبعث على الراحة.

جلست السيدتان على مقعد الحديقة تطالعان ابنيهما وهما يطاردان السناجب والبط والنورس وكل شيء يتحرك. بدأتا الحديث بتحفّظ لم يدم طويلاً، فزينة من ذلك الصنف من النساء اللاتي يُشعرنك فوراً بأنك تعرفهن منذ زمن بعيد. هي وزوجها من البوسنة أصلاً، لكنهما قدما إلى بريطانيا مع أسرتيهما في التسعينيات بسبب الحرب هناك.

قالت فاتن لزينة يومها:

- «من لا يعرف يظنك إنجليزية».

ردت:

- «أما من يراكِ فيعرف رأساً أنك غريبة.. بالحجاب وبدونه، تلك النظرة في

عينيك، ذلك الـ.... كيف أصفه؟ ذلك العشم! ليس من خصال الإنجليز».

في عربة الطفل بجوار زينة بكت صغيرتها فاستدارت تحملها وهي تقول: «صحونا أخيراً؟ فاتن.. أقدّم لك مايا! عمرها أربع سنوات.. لكنني أم كسولة، ما زلت أخرج بعربة البيبي كي تنام فيها إن أرادت دون أن أضطرّ لحملها!». نزلت الصغيرة من حجر والدتها ووقفت تحدق في فاتن بعينين ناعستين، ثم انفرج فمها في ضحكة تنسيك أن بالدنيا شقاء. خطر في ذهن فاتن أن تلك الصغيرة في يوم ما ستحطّم الكثير من القلوب.

منظر الولدين وهما يضحكان ويركضان بثّ سعادة لا توصف في قلب فاتن، ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة وقالت لزينة:

- «آدم طفل وحيد، يفتقد اللعب مع أقرانه».

- «لا تودين الإنجاب ثانيةً؟».

انطفأت ابتسامة فاتن فورا:

- «ولادة آدم كانت صعبة.. حصلت مضاعفات... لا أمل في طفل ثان».

- «فاتن... أنا آسفة! يا لغباء أسئلتي! نحن وأنتم مسلمون، ونعرف أن الله لا يكتب لنا إلا الخير. يجب أن أغير الموضوع! هل يشبه آدم والده إذن؟ هو لم يأخذ من ملامحك شيئاً!».

- «هو أقرب لياسر فعلاً في الشكل».

- «حسناً.. على الأقل إنجاب طفل واحد مكّنك من استعادة رشاقتك! أما أنا.. مستعدة أن أضحي بالغالي والنفيس كي أحصل على قوامك!».

- «غير صحيح يا زينة.. أنت قمر» رن هاتف فاتن.. «أكيد ياسر... آلو؟».

دوى صوت زوجها صائحاً:

- «إنتو فين؟ باتكلم في البيت مافيش حد!».

- «إحنا في الجنينة».

- «إنتي من إمتى بتخرجي من غير إذني؟ وهتطبخي إمتى إن شاء الله؟ ولا جوزك ده طرطور مالوش اعتبار.. أنا خلاص دقيقة وأوصل».

أحرجها أن تسمع زينة صراخه، فنهضت بعيداً وهي تهمس في الهاتف:

- «بالراحة بس.. أنا هنا مع صاحب آدم ومامته...» ألقت نظرة سريعة على آدم، اطمأنت أنه واقف بجانب البحيرة يطالع مايا التي أخذت تصفق وتضحك لرؤية البط.. «الولاد بيلعبوا ومبسوطين».

عندما تحدث ياسر ثانية كان صوته خافتاً:

- «بذمتك؟ يعني إنتي خرجتي مع ناس من المدرسة؟ أيوه بقى! مش قلت لك؟ الشعر هيعمل شغل! إنجليز طبعاً؟».

من فوائد معاشرة ياسر لسبع سنين اكتساب معرفة غريزية بمكامن الخطر، استشعرت فاتن فوراً أهمية أن يكون الأصدقاء الجدد «إنجليز».

قالت بثقة:

- «آه طبعاً إنجليز.. أمال هيكونوا إيه يعني؟ عموماً ياخويا إحنا هنمشي دلوقتي على طول.. خمس دقايق وأكون في الـ.....».

- «لأ لأ لأ.. خليكي عندك وبراحتك خالص! أنا هجيب أي أكل وأنا جاي.. إوعي تمشي فجأة كده، دي تبقى جليطة واحنا ناس بنفهم في الأصول»!

بعد نحو ساعة كانت فاتن تسير نحو البيت في حالة نادرة من التفاؤل بالحياة، بينما آدم يثب أمامها، يغني كل أغاني الكارتون التي يعرفها. رنّ هاتفها معلناً وصول رسالة صوتية. أدخلت رقمها السري متوقعة أن يكون المتصل ياسر أو ربما أمها. لكن الرسالة كانت غير متوقعة:

- «مسز فاتن بحيري. أنا الدكتور بوريس أندرسون الطبيب الاستشاري في مستشفى پرينسس رويال. كنا أجرينا لآدم تحليل دم بعد التهاب اللوزتين الذي أصيب به الأسبوع الماضي.. حسناً، النتائج أمامي الآن وهو بصحة ممتازة.. لا تقلقي. على الرغم من هذا فقد كشف التحليل أمراً في غاية الخطورة. أنا في مكتبي الآن وسأنتظرك وزوجك لإبلاغكما بالأمر وجهاً لوجه. سأنتظر حتى السادسة. أكرر: الولد بخير، لكن الأمر لا يحتمل الانتظار».

لما وصلا البيت دخل آدم رأساً بينما ظلت فاتن واقفة في الخارج والهاتف على أذنها. بعد لحظات أدركت أنها تحدق عبر زجاج النافذة في عيني ياسر، وأدهشها أنه يبتسم لها لأول مرة منذ عهد بعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٧-

آخـر مرة اتصل فيها ياسر برقم البيت ولم يأته رد كانت قبل ست سنوات. ويا لها من مرة! تبيّن حينها أن الست الدكتورة غير المعترف بها هجرت البلد كلها. سافرت لتلد بجانب أمها في بقعة عفنة من الريف المصري. لذلك عندما رن جرس البيت هذه المرة بلا رد صُعِق.. أي زوج مغفل هذا الذي يُضرب على قفاه مرتين؟ كان يتصل وهو يصعد المنحدر المؤدي لشارعهم، ينهج ويتصبب عرقاً رغم أن درجة الحرارة لا تتعدى العشرة المئوية. يعلم ياسر أنه يحتاج ليفقد الكثير من الوزن، لكن ما بقي كرشه تائهاً في طوله الفارع ومتوارياً خلف بدله الإيطالية الفاخرة فلا داعي للقلق. اضطر مرغماً أن يتصل بهاتف فاتن المحمول رغم أن الدقيقة الآن وصلت إلى اثنين وعشرين بنساً.

في نهاية المكالمة كان قد وصل إلى منتصف المنحدر وإلى نهاية طاقة رئتيه في ذات الوقت، لكن الدنيا باتت لا تسعه من الفرحة، لقد نجحت زوجته بعد جهد جهيد في تكوين صداقة في هذا البلد، وبمن.. بأسرة إنجليزية لا أقل! ستتغير الحياة الآن أخيراً، ستمنحه فاتن مفتاح الولوج للمجتمع البريطاني الموصد أمامه. في المستشفى الجميع متحضرون أي نعم، لكنهم متحفظون معه لحد يثير الجنون.. لا يدعونه لمشاركتهم في كأسي بيرة بعد العمل، لا يخطر ياسر أبداً ببال أحدهم وهو يبحث عمن يلاعبه مباراة اسكواش في نهاية الأسبوع. لا حياة اجتماعية من أي نوع... لكن كل هذا على وشك أن ينتهي الآن، والبركة في فاتن.

وصل البيت ونقّب عن شيء يأكله. لم يشترِ طعاماً كما وعد فاتن في الهاتف.. إنها مجرد مصاريف على الفاضي وهو -في الواقع- عينه على قميص رالف لورين سيقتنصه بمجرد أن يبدأ الأوكازيون. ثم إن علب الفول الجاثمة في خزانة المطبخ قد تتلف. لأول مرة منذ ستة أعوام أشعل البوتاجاز بنفسه. سخّن بعض الفول وقمّر ثلاثة أرغفة وقطّع بصلة عظيمة فوق كل شيء. أخذ الطعام إلى الطاولة وانطلق يأكل. تقول فاتن إن منظره وهو «ينزل على» الطعام مقزز، وإن نفسها تعافه وقت الأكل. لماذا ابتلاه الله بزوجة وقحة هكذا؟

لما انتهت المعركة أسند ظهره إلى الوراء وتجشأ بأريحية مدوية، ثم أغمض عينيه. في الحقيقة أن فاتن بالنسبة له ليست أسوأ شريكة حياة يمكن أن يبتلى بها. صحيح أنها غبية ومكلفة، لم تدخل مليماً واحداً للبيت، اللهم إلا التحويلات النقدية التي صارت أمها ترسلها من حين لآخر على سبيل الهدايا. لكنها فيما عدا ذلك زوجة مهاودة، تسمع الكلام في كل صغيرة وكبيرة. وها هي الآن تمنحه الشكل الاجتماعي الذي يتمناه بفضل شعرها الأصفر وعينيها

الخضراوين، وابنه الذي قد لا يبدو إنجليزيا لكنه يتحدث الإنجليزية كأبنائها الأصليين. يجب أن يضغط عليها الآن كي تجتاز امتحان ال«زفت» المعادلة، عندها ستقبل عليهم الدنيا بحق. سيضربون بجذورهم هنا حتى ينالوا الجنسية ومعها الباسبور الأحمر المنشود، وعندئذ سيصبحون متحضرين شكلاً وسلوكاً وورقاً رسمياً.

في ذروة مهرجان التحضّر هذا نهض فوضع طبقه في الحوض وفتح صنبور الماء. لكن تَحَضُّره خانه عندئذ فلم يصل به لحد غسل الطبق.. تركه يطفو فوق الماء الوسخ. تفحّص انعكاس وجهه في زجاج النافذة وابتسم راضياً. بمن شبّهته موظفة شؤون العاملين في المستشفى؟ «دينزل وشنطن.. النسخة الأطول». في الحقيقة أنه لم يكن قد سمع بهذا الممثل من قبل. انتهز أول فرصة وتقصّى الأمر على الإنترنت.. وهاله أن الرجل زنجي! إن سماره المصري لا يصل أبداً لحد سواد الزنوج! لكنه استنتج من تعليقات الزميلات أن ذلك الممثل مثال للوسامة في عيون بنات الإنجليز. ليلتها مرّ بمتجر فيديو قبل أن يعود للبيت واستأجر كل أفلام دينزل وشنطن. قال لفاتن بلا اكتراث وهما جالسان أمام التلفزيون:

- «بالمناسبة.. زميلتي بتقول إني شبه الممثل ده.. تخيلي؟!».

جاء ردها مغتاظاً:

- «يجوز.. بس شبهه لما يتخن خمسين كيلو وينسى يحلق شعره شهرين»!

والآن عبر النافذة رآهما مقبلين عليه، آدم يثب كالضفدع ثم يقرفص على الأرض ويطلق نقيقاً قبل أن يثب من جديد، سعيد هو ومعه كل الحق. ولكن ألم يكن بمقدوره أن يشابه أباه فيصبح أطول قليلاً؟ أو يشابه أمه فيصبح أشقر قليلاً؟

وها هي ذي، بطلتنا القومية الليلة، أمل مصر! تتبختر نحو المنزل والهاتف على أذنها. تتحدثين في الهاتف أيضاً؟! منذ متى ولك صديقات يهاتفنك يا بنت العمدة؟ التقت عيناهما أخيراً، وأذن لوجهه أن ينفرج عن ابتسامة عادة ما يدّخرها للآخرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٨-

متأكدة إنه ما قالش هو عايزنا في إيه؟

حدقت فيه فاتن غير مصدقة السؤال:

- «سبحان الله! إنت مش سمعت الرسالة بودنك ياخويا؟!»

- «طب خلاص خلاص.. سمعينا سكاتك».

مضت بقية الرحلة بعد ذلك في صمت حتى صفّ ياسر السيارة في ساحة المستشفى. ساعدت فاتن آدم علي النزول، مسحت عيناها كفيه السمينين ونغازتي وجهه وأنفه المنمنم. قال: - «مامي.. أنا جعان».

- «يا حبة عيني.. ما انت ما اتغديتش.. بس نخلص المشوار وهشتريلك هابي ميل من مكدونالدز اللي هناك ده.. good boy».

حيّاهما دكتور أندرسون بحرارة، خاصة بعد أن قدّم ياسر نفسه وزوجته قائلاً: «دكتور ياسر البحيري، وزوجتي دكتورة فاتن». نادى السكرتيرة وطلب منها اصطحاب آدم لغرفة ألعاب المستشفى. ثم نظر لهما وأردف: - «بعد إذنكما طبعاً.. نحتاج أن نتكلم في هدوء».

فتح أندرسون ملفاً أمامه وأخذ يقلّب في الأوراق. رأسه المطرق مكلّل بالثلج، وفي هذا الوضع لا يظهر من وجهه سوى إطار نظارة ذهبي وأنف مدبب. داهم فاتن شعور بأنه يشتري الوقت. يفتّش عن الكلمات. لو كانت أمها هنا لرددت «يا لطيف» ٣٣ مرة. فكرة لا بأس بها. لكن قبل أن تنتهي فاتن من تمتمة اسم الجلالة بالعدد المطلوب تكلم أندرسون: - «دكتور فاتن، دكتور ياسر. تحليل دم آدم يثبت دون أدنى شك أنه لا يمكن أن يكون ابنكما».

أطبق صمت عميق قطعته نوبة سعال انتابت ياسر فجأة. لكنه أرغم نفسه على التوقف وسأل: - «عفواً؟!».

- «دكتور ياسر، فصيلة دم آدم طبقاً للتحاليل لا يمكن تنتج عنكما. يستحيل أن تكون والد آدم البيولوجي. وبنفس القدر، يستحيل أن تكوني حضرتك يا دكتورة والدته البيولوجية. أنتما طبيبان وتفهمان ما أقول.. ما أثار استغرابي حقاً هو أن يظهر كل هذا الآن فقط، فطلبت الملف الكامل لآدم وعرفت أنه لم يولد في هذا البلد.. بالتالي فلم تُجرَ له تحاليل قبل التهاب اللوزتين الحالي. هذا الالتهاب في الواقع نعمة.. لولاه لظللنا.....».

طوال كلامه ظلت فاتن تنقل نظرها منه لزوجها الذي جلس يسمع كالتمثال، لا يرمش جفناه، لا يتنفّس، وكأنه أصيب بالشلل. الآن اضطرّت لمقاطعته: -

«كلام فارغ!!».

- «مع الأسف.. ما أقوله لا يقبل الشك. سنجري طبعاً تحليل DNA.. لكن الاحتمال في أن يكون كلامي خاطئاً لا يتجاوز صفراً في المائة».

- «كذب!! ما لك ساكت يا ياسر؟!».

- «اتكتمي يا فاتن! الدكتور كلامه واضح.. دكتور! اعذرها على الانفعال».

- «أنا مقدر تماماً».

لا تتذكّر فاتن الكثير عما دار بعد ذلك، فلم يتيسّر لها أن تتابع حديث زوجها والطبيب؛ لأنها ببساطة سافرت إلى عالم آخر، مكان وزمان مختلفين. بدلاً من المقعد الجلدي الوثير أحست وكأنها مطروحة على سرير قاس ضيق تتناثر عليه بقع داكنة خبيثة. أغمضت عينيها وأتاها صوت ياسر، وكأنه في غرفة أخرى: - «بخصوص تحليل الـ DNA»؟

عندما فتحت عينيها لم ترَ شيئاً؛ لأن شبورة ضباب حجبت الرؤية، وسرعان ما انقشعت عن عينين تطالعانها في هلع. تبدد الضباب أكثر فأبصرت ممرضة ذات أظافر وسخة ورقبة يعلوها الصدأ. تلاشى صوت ياسر، وسمعت أمها تصرخ: «بنتي.. بنتي هتروح يا ناس!».

- «ماعندناش أكياس دم يا دكتور.. الوزارة ما بعتتش».

رأسها ثقيل متعب. سمعت رجلاً يزمجر: «غوري يا بت اتصرفي!».

تكلم صوت جديد بنبرة استجداء، وأذهلها أنه صوتها هي! سمعت نفسها تتوسل: «ابني.. ابني يا ماما!».

وفجأة دخل صوت ياسر على المشهد، كان يصفعها على خديها ويردد: «قومي! كفاية فضايح بقى! فاتن!».

فتحت عينيها فوجدت نفسها على الأريكة في غرفة الدكتور أندرسون، تسبح في عرق غزير بارد، ومن حولها يقف ياسر وأندرسون ومساعدته. قالت بوهن: «ابني.. ابني فين؟».

احتضن يدها كف سمين ونظرت فإذا بآدم يطالعها في قلق ويقول: - «أنا هنا جنبك يا ماما».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-٩-

فـي الأيام الخوالي كانت الحاجّة أسمهان تهوى التنزه. يصطحبها العمدة حجازي في زياراته للبندر، يُفرّجها على دار ابن لقمان ويُدخلها السينما، يتناولان وجبة سمك عند نصار ثم يتمشيان قليلاً على النيل قبل العودة لـ«ميت أبو النور». أو يصطحبها للقاهرة، يزوران مقام الحسين أو السيدة نفيسة، ويأكلان الجيلاتي في جروبي. وحتى عندما تراجعت صحة العمدة كانت أسمهان تزور المنصورة وحدها، تتبضّع في شارع الجمهورية ثم تصلي العصر في مسجد الموافي وتعود أدراجها.

لكن تلك الأيام ولّت، بات الخروج عبئاً على أسمهان. إن هي احتاجت شيئاً ليس موجوداً في القرية تستقدمه إن أمكن وإلا تصرف قلبها عنه. والمفارقة أن ارتباطها بـ«ميت أبو النور» زاد منذ رأت ابنتها شبح الموت أثناء ولادتها. فبعد أن سافرت فاتن لزوجها أدركت أسمهان لأول مرة أن القرية غير آمنة، وأن غياب الحدّ الأدنى من الخدمات الصحية قد يعرّضها هي أو من تحب لخطر داهم ذات يوم. لكن مجرد التفكير في بيع العزبة والانتقال إلى شقة في المنصورة وطّد صلتها بـ«ميت أبو النور» أكثر من أي وقت مضى، وصممت أن تموت في البيت الذي تزوّجت وأنجبت فيه.

لكل ذلك، اندهشت فاطمة الخادمة عندما فتحت الحاجة باب غرفتها ذات صباح وبدلاً من أن تطلب فنجان قهوة مضبوطاً كعادتها قالت:

- «بت يا فاطنة... شيعي للواد غنيم يحضر العربية.. عايزة أخرج أشم الهوا».

عضّ غنيم بأسنانه على طرف جلبابه وهرول لدار العمدة فإذا بالحاجة وفاطمة قابعتان فعلاً في مقعد البيجو الخلفي، وقد تلألأت السيارة بفعل الماء والصابون، واختفت طبقة التراب الكثيفة التي طمرتها طيلة شهور أو ربما سنوات. جلس وراء المقود واستدار ليأخذ المفتاح من أسمهان هاتفاً:

- «مش بعادة يعني يا ست؟! فيه حاجة لا سمح الله؟!».

زجرته فاطمة:

- «سوق وانت ساكت يا ولا!».

- «السؤال ما حرمش يا خالة فاطنة! أقلّها أعرف على فين العزم من النجمة كده؟».

- «ما يجراش حاجة يا فاطنة.. أصل العمدة يا واد يا غنيم جاني في المنام إمبارح وقالي الولا اللي اسمه غنيم ده بيهفّ فلوس على الفاضي.. وعمال

يحشّ في أنجر فتة،، ولازمن يهز طوله ويحلل القرشين.. هيه؟ ارتحت؟ انكتم بقى وبصّ قدامك وسوق. امسك الطريق وبعدين خد يمين».

سعلت السيارة القديمة مرتين احتجاجاً -أو احتفالاً- ثم مضت في طريقها.

الشمس بعدها صباحية وديعة، لم يتبادل راكبو السيارة حديثاً إلا تعليمات أسمهان: «يمين.. شمال.. طوالي»....

- «الله! ده طريق الوحدة الصحية يا حاجّة!».

- «فالح يا وله.. أمال بيقولوا عليك عبيط ليه؟ وقّف قدام الوِحدة بالضبط واستنوني في العربية».

- «كفى الله الشر يا حاجّة! إنتي بتشكي من حاجة؟ آجي معاكي طاه؟».

- «ما تتعتعيش من مطرحك يا فاطنة! مش هاتأخر».

بعد حوالي الساعة خرجت أسمهان من الوحدة الصحية بوجه متجهم لم يشجع فاطمة ولا غنيم على طرح الأسئلة رغم أن الفضول كاد يفترسهما. ركبت في صمت وقالت: «اطلع دوغري يا ولا، وآخر الشارع خشّ شمال».

عندما وصلت السيارة لطريق غير ممهد وسط حقل تهيمن عليه الحشائش البرية قالت:

- «وقف هناهو.. ركبي نقحت عليا من القعدة».

قال غنيم غير مصدق:

- «هناهو هناهو؟!».

نظرت فاطمة باشمئزاز لكتيبة الأطفال التي تحلقت حول السيارة، وقالت هي الأخرى:

- «إشمعنى هناهو يا ست؟! طب كنا نستنضفلنا حتة...».

- «ديهدي؟! إيه فيه إيه؟ باقولكو عايزة أمشي رجلي. وريقي نشف، شوفوا حد من الدار دي يسقينا بُقّين مية».

تشعر فاطمة أن شيئاً ما اليوم غير طبيعي، ست أسمهان ليست هي ست أسمهان. نظرت للدار التي أشارت عليها الست - الدار الوحيدة في المكان؛ مجرد غرفة طينية متهالكة. نزلت من السيارة لتطرق الباب الخشبي.

ومن الجانب الآخر كانت أسمهان أيضا تنزل، هشّت سرب الذباب الذي استقبلها وتفحّصت الأطفال الذين أحاطوا فوراً بها. تجرّأ أحدهم وسأل:

«عايزة مين يا ست؟». أخذت تتفحص وجوههم بعناية وتدعو الله ألا يستغرب نظراتها أحد. جميعهم متشابهون، الأعين ضيقة والأنوف قذرة والأوجه متربة جائعة. ثم وجدته.. عرفته فوراً. تراب العالم لن يستطيع أن يخفي العرق التركي في هذا الصبي. له عينا فاتن الخضراوان وشعرها الفاتح، وهذه جبهة زوجها الواسعة وهذان منكباه العريضان. لم تنتبه أن فاطمة عادت ومعها صاحبة الدار التي لاحظت تسمّر عيني الحاجة على الصبي. قالت تلك الأخيرة: «ده الواد زكريا.. طالع أشقر لستّه أم أمي. يادي النور يادي النور.. الحاجة أسمهان في دارنا؟! ده إحنا زارنا النبي.. إنتم لازمن تتغدوا معانا النهارده».

في الداخل استقبلتهم رطوبة تبثها الجدران. تجاهلت أسمهان بدماثة عرق الخشب البارز في السقف وألواح الكرتون المفروشة على الأرض. قالت بهانة وهي تصب الشاي:

- «يا محاسن الصدف اللي ساقتكو عندنا النهارده.. إنتي مش فاكراني يا حاجة؟ آني كنت باجيلكم زمان في المزرعة.. أيام العمدة الله يرحمه، كان أبو الكرم كله. آخر مرة جيت كنت عيّلة، إديتيني الفستان اللي على البت نسمة بتّي ده، ده كان فستان الدكتورة فاتن وهي صغيرة! إلهي بحق جاه النبي يعلّي مراتبها كمان وكمان».

غالبت أسمهان اضطرابها وسألت كما كانت لتفعل في ظروف غير هذه:

- «ديه بنتك الكبيرة؟ ربنا يزيد ويبارك. عندك غيرها؟».

- «ستة... إلهي يصونهم من العين. أكبرهم نسمة وأصغرهم اللي هناك ده». أشارت بيدها عبر الباب المفتوح «بلال.. اللي الولا زكريا ساحبه وراه ده، الاتنين دول أصلهم فوق روس بعض، عاملين زي التوم، زكريا ست سنين وبلال خمسة. وخلاص على كده شطبت.. فضْل وعدْل». بهانة ذات وجه نحيل، صبوح رغم الفقر الساكن في جوانبه. ضحكتها خجولة حاضرة.

- «حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي.. هيه، قومي بينا يا فاطنة بقى».

- «وربنا المعبود لا يُمكن أبداً! ده سي عبده كان يدبحني، لازمن تتغدوا معانا!».

قالت أسمهان وهي تنهض:

- «معلش.. عندي معاد مع الحكيم. ابقي مرّي يا بهانة.. خدي هنا يا بت يا نسمة».

تمنّعت الصبية عن قبول المال الذي دفسته أسمهان في كفها، لكنها قبلت بعد تشجيع أمها وتذكير الجميع بأن النبي قبل الهدية، ثم غادر الضيوف

مشيعين بالدعوات.

- «على فين دلوقت يا حاجة؟» سأل غنيم وهو يدير المحرك.

- «خلاص يا ولا.. اطلع على البيت.. كفاية كده».

- «خلاص يعني؟ العمدة الله يرحمه ارتاح كده في تربته؟ أما والله العظيم.....».

وترك غنيم الجملة معلقة وأخذ يهز رأسه ويضحك لنفسه.

الاحتقان الذي ألمّ بأسمهان منذ هاتفتها فاتن منهارة بالأمس، وروت ما قاله الطبيب بلغ الآن حد الانفجار. جلست الآن في السيارة تحتضن الهاتف المحمول، لا تتمنى من الدنيا سوى أن تنفرد به لتحادث ابنتها وتخبرها بما تعلم. قاطع شرودها تململ فاطمة بجوارها. من حين لآخر تغمغم الخادمة العجوز بحدة: «أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم»، ثم تطلق زفرة حارقة يعقبها المزيد من الغمغمة «استر على ولايانا يا رب.. استر عورات المسلمين يا رب».

التفتت اليها أسمهان منفجرة:

- «يووه! ما لك يا به؟».

على سبيل الردّ زمّت فاطمة شفتيها الرفيعتين للأمام وهزهزتهما ذات اليمين وذات اليسار بسرعة شديدة بينما يداها في حجرها تشيران أن أقبلي أيتها الفضيحة. نقلت عينيها من أسمهان لغنيم لأسمهان أكثر من مرة، حتى فهمت أسمهان أنها لا تريد الكلام أمام السائق.

وبمجرد أن أغلقت فاطمة باب البيت عليهما انطلقت تروي لأسمهان فضيحة بهانة التي كانت تلوك البلدة كلها سيرتها منذ سنوات.

- «إنتي يا ست ما سمعتيش؛ لأنها كانت ساعة ما اتولد اسم النبي حارسه وصاينه آدم.. وماكانش فيكي دماغ لحاجة».

بمقلتين جاحظتين وهمس إلحاحه أبلغ من الصراخ بدأت الرواية: أنجبت بهانة ولداً ذكراً لا يشبه أحداً في العائلة «اللي هو الواد زكريا». فبينما يتسم كل الأبناء ذكوراً وإناثاً بالقامة القصيرة والبشرة القمحية «زي أبوهم وأمهم.. يعني هيجيبوه منين؟» جاء زكريا على النحو الذي رأته أسمهان اليوم. أمسكت نسوة البلدة في السيرة وأخذن يلُكْنها «بيقولوا الولية أستغفر الله العظيم مشيها بطال.. والله أعلم بقى.. ربنا يعافينا يا ست». المهم، كثرت النميمة حتى وصلت عبد العليم زوج بهانة الذي ما لبث أن رمى يمين الطلاق على امرأته، ثم رمى امرأته شخصياً في الشارع. لكنها لم تصمت، وسّطت

كبارات البلد ونسوة العائلة وعلى رأسهن حماتها ذاتها التي هي عمتها في نفس الوقت. تدخل الجميع لصالح بهانة. لفت أحدهم الى شقار أبناء المنصورة أو كثيرين منهم. وتذكرت إحداهن جدة خمرية اللون فارعة الطول، واستدعت أخرى تربية بهانة التي ليس عليها غبار، وتساءل آخر مع من يعني خانت بهانة زوجها والبلد لا يدخلها أغراب؟ وأخيراً اقتنع عبد العليم ببراءة زوجته فردّها.

- «ما خدتيش بالك يا ست أول ما شافتنا بنشاور على الواد قالت إيه؟ زغرت بعنيها كدهو وسرسعت حسها وقالت الواد طالع أشقر لستي أم أمي! على راسها بطحة قدّ الجاموسة! طب آني عارفه ستها دي، كانت عبدة سودا كودا.. ما تفسّريهاش في الضلمة.. إنما نقول إيه يا ست؟»

صار الهاتف المحمول جمرة نار من كثرة ما فركته أسمهان:

- «قولي اللي قلتيه واحنا في العربية يا فاطنة.. استر على ولايانا يا رب.. باقولك إيه ياختي آني مافياش دماغ لرغي النسوان ده.. آني داخلة أوضتي.. وحسك عينك تقلقي منامي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٠-

دخلت بيت «سام» عشرات المرات. لكنه اليوم يبدو غريباً، مخيفاً وأكبر من المعتاد. الكرسي الأخضر الهزاز الذي أحب التأرجح عليه منظره الآن كئيب وغير مرحّب. وانبعاجات الجلد على الأريكة التي دائماً تتراءى لي وجهاً باسماً لا أثر لها اليوم، تبدو مجرد أريكة بائسة كغيرها.

استقبلتنا «آنتي زينة» بحماس كبير، لكن محاولاتها لإضحاكي -أو اغرائي بكعكتي المفضلة- لن تنجح اليوم. لن أتزحزح من أمام الباب، لا أريد أمي أن تتركني وتذهب، سأمسك بمعطفها كي أضمن بقاءها.

سألتني آنتي زينة لماذا أبدو كزهرة ذابلة؟ هززت كتفيّ ولم أقل شيئاً.. أجابتها ماما بأنها المرة الأولى في حياتي وحياتها التي تسافر وتتركني. ثم وضعت أمي حقيبة «Winnie the Pooh» التي جلبناها من البيت على الطاولة، أخذت تُخرج محتوياتها وتريها لآنتي: ملابس، فرشاة أسنان، قصص، دواء السخونة، الدبدوب الذي أحتضنه عند النوم، سي دي قرآن. فجأة احتضنتها آنتي، نظرتُ لهما فخيّل لي أن أمي تبكي. ثم قالت آنتي: - «فاتن.. أعرف أنك قلقة.. لكن سي دي قرآن؟ فعلاً؟؟ أنا لا أسمح بهذه الإهانة! نحن مسلمون ولدينا ما يكفي!».

ضحكت أمي ومسحت دمعة من على وجهها.

ثم جثت ماما بجانبي وقرّبت وجهها من وجهي، ابتسمَتْ لكن بوجه حزين. حدّثتني بصوت خفيض: - «دُومَا يا حبيبي.. إنت هتكون مبسوط قوي هنا والله مع آنتي زينة وسام.. أنا وبابا مش هنتأخر في مصر. ده وعد.. Promise. هاه أجيبلك إيه معايا من مصر؟ ما لك يا دُوما؟ مش انت وعدت ماما ماتكونش زعلان؟».

لكن فمي لا يريد أن يبتسم، لمحتُنِي في المرآة خلف ماما فوجدته يتجه للأسفل. رفعت أمي ذقني برفق وقالت: - «ما لك يا حبيبي بس؟ احكي لماما»

- «ماما.. هو بابا زعلان مني؟ هو ليه ما بقاش يكلمني ولا يلعب معايا؟».

- «لا يا دُوما خالص.. بابا بس عنده مشكلة في الشغل. ده بابا بيحبك قوي ومش ممكن يزعل منك أبداً. وماما بتحب دُوما، وتيته أسمهان، وآنتي زينة، وسام، ومايا الصغنونة، وصحابك في الفصل، والتيتشر بتاعتك!».

لم أكن أريد الابتسام لكن فمي ابتسم رغماً عني. كل هؤلاء يحبونني؟! قلت: - «ومين كمان!».

- «ومين كمان بيحب دُوما؟ مين كمان يا فاتن؟ آه! البوسطجي.. وسواق الباص.. وبياعين السوبرماركت.. وتعرف مين كمان يا دُوما؟»

قلت بلهفة:

- «مين؟ مين؟».

- «الملكة إليزابيث!».

قفز حاجباي لفوق وصفعت فمي بكفّي من الذهول. ثم قالت أمي: - «ومين كمان يا دُوما؟ قول انت بقى!».

جاءتني فكرة مدهشة:

- «سبايدرمان؟!».

- «براڤو عليك إنك افتكرته! ده سبايدرمان بيموت فيك!».

- «وباتمان؟».

- «باتمان بقى بالذات بيتشكر فيك قوي.. وزعبوللامان كمان!».

رأيتني في المرآة أضحك وأصفّق وأنطّ. ثم جاءني من الطابق الأعلى صوت سام يناديني لنلعب في حجرته. قفزت على السلالم درجتين درجتين. وقبل أن أدخل الحجرة صحتُ لأمي في الأسفل: - «ماما! هاتيلي لعبة حلوة من مصر!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١١-

خطوات معدودة تفصل بيتـي زينة وفاتن قطعتها الأخيرة الآن بروح لونها كضباب لندن. لقد قالت لزينة إنها لم تترك آدم أبداً من قبل، لكنها استحيت أن تضيف أنهما لا ينامان إلا وذراعا أحدهما يحيطان بالآخر، ونَفَس كل منهما يملأ جوف الآخر. لم يفلح ياسر بكل ما أوتي من قدرة على السخرية أن يثنيها عن أن تحتضن ابنها كل ليلة.

كان صباحاً أسود الذي وصل فيه خطاب المستشفى متضمناً نتيجة تحليل الـ DNA وقاطعاً بلا ذرة شك بأن آدم لا يمت لها ولا لياسر بأي رابطة بيولوجية. والآن ستسافر مع زوجها إلى مصر.. سيقابلان طفلاً يُحتمل أن يكون ابنهما الحقيقي - أو البيولوجي على الأقل. إذا تبين أنه يحمل جيناتهما.. هل يجعله ذلك «ابناً»؟ ومن قُذف في حضنها منذ كان عمره خمس دقائق.. ماذا يسمّى إذن؟ غريب؟ ابن الجيران؟ كيف يكون آدم «ابناً» لأسرة لم تره ولم يرها قط؟ كيف ستتخلى فاتن عن قرة عينها... عن الحكمة من وجودها كما قالت ذات مرة لزوجها: «أنا بعد ربنا ما رزقني بآدم عرفت ربنا خلقني ليه.. عشان أجيب آدم، وأربيه وأراعيه».

توقعت أن يكون ياسر قد عاد مبكراً ليلحقا بالطائرة، وبالفعل، قبل أن

تدخل البيت سمعت صوته آتياً من الحديقة الخلفية، ها هو يحادث جارتهم عبر السور القصير الفاصل بين الحديقتين. وقفت تتفرج عبر زجاج باب الحديقة وعلى وجهها شبح ابتسامة تهكم. اليوم يا ياسر؟! وجدت شهية لتلك الصبيانية في يوم كهذا؟

رغم أن صوتهما لا يصل إلا أنها استنتجت من تعبيرات وجه زوجها أنه شغّل ماكينة الإغواء على طاقتها القصوى.. كان يبتسم ويشير بذراعين مفتوحين لزهور الجارة، يمتدحها بلا شك.. وكان وجه الجارة متجمداً على ابتسامة عريضة كذلك. لكن فاتن لم تعد تجزع من مشاهد كتلك، هي تعرف جيداً الآن أن زوجها يهوى الجنس اللطيف ويحرص -لسبب ما- على أن تبدو شعبيته بينهن مرتفعة، لكنها باتت تدرك في نفس الوقت أن تصرفاته تلك لا تفضي لشيء خطير أبداً، وأن ثلاثة أرباع مغامراته وهمية، بل إنها قررت بينها وبين نفسها منذ زمن بعيد أن الرسائل الهاتفية الغرامية التي وجدتها قبل أن تهرب من البيت مختلقة.. زرعها ياسر في طريقها عمدا.

لمحها زوجها عبر الزجاج فاعتذر من محدثته ودخل. خلعت حذاءها وارتمت على الأريكة وقالت: - «كويس إنك ما اتأخرتش.. أنا حضّرت كل الشنط وما فاضلش غير.. بتبصلي كده ليه يا خويا كفالله الشر؟».

- «هابص على إيه يعني يا حسرة؟ بابص على العجايب بتاعت آخر زمن.. إنتي لسه هتقعدي.. فزي قومي شوفيلي أي حاجة آكلها!».

- «حاضر! كنت هاريح ضهري شوية من تحضير الشنط».

اتجهت للمطبخ وهي تقول:

- «آدم عند زينة.. ما سبتوش إلا لما بقى مبسوط وبيضحك، بس الأول كان حالته تصعب على الكافر يا حبة عيني، ده حتى قال إنك....».

تبعها ياسر للمطبخ وصرخ فيها:

- «مبسوط ولا مش مبسوط سي زفت ده.. أنا ما لي.. بطلي تكلميني عنه.. وانتي كمان بطلي تفكري فيه!».

- «إيه؟! يعني إيه يا ياسر؟».

- «يعني ده مش ابننا.. وكلها أسبوع ولا اتنين ولازم نرجّعه لأهله وناخد ابننا الحقيقي.. إنتي مبرّقة لي كده ليه؟ ما كنتيش عارفة ولا إيه؟».

- «مش لازم نرجّعه ولا حاجة!!».

- «لا والله؟ مش لازم إزاي بقى يا فالحة؟!».

- «يجوز.. ما اعرفش!! يمكن هم مش عايزين»!

- «إنتي يا بت جبلّتك إيه؟ هبله ولا متخلفة ولا حد مسلطك عليا؟»

لكزها في جانب رأسها فصاحت وأسقطت بيضاً كانت تمسكه.

- «إنتي دخلتي كلية الطب ازاي نفسي أفهم! ده حتى الخلفة فاشلة فيها.. طفشتي من البيت ورجعتي بعيل غلط! أنا اللي أستاهل ضرب الجزم إني آويكي لغاية دلوقتي!».

كان رذاذ فمه ينهال على وجهها ويده مستمرة في خبط رأسها حتى اختل توازنها وارتطم رأسها بمقبض دولاب المطبخ. لكنها لم تأبه للألم، صاحت فيه:
- «ليه؟ وانت مش أبو اللي كان في بطني؟ كنت فين وانا باولد ومتبهدلة وابننا بيروح لناس تانيين؟ ده أنا كنت شايفة الموت بعينيا دول!».

- «هو أنا اللي قلتلك تتنيلي تهربي؟».

- «أيوه انت السبب.. كنت بتعاملني زي الحيوانات.. وكنت.. كنت بتعرف واحدة عليا».

- «إيه؟!».

- «أنا شفت الرسايل.. وعرفت إنك بتخوّني.. وما فتحتش بقي عشان الست العاقلة ما تخربش بيتها.. أبقى هبلة بقى ولا متسلطة عليك؟ ما لك سكتّ ليه؟ نسيت البت بتاعة الرسايل ولا إيه؟».

- «اخرسي.. أنا أعمل اللي أنا عاوزه».

لكنه بدا مرتبكاً.. أدار ظهره واتجه لباب المطبخ، ثم استدار وأشار للبيض المتهشم على الأرض وقال دون أن يطالعها: - «شيلي القرف ده».

تحسست مؤخرة رأسها فوجدت كدمة مؤلمة في موقع الارتطام. جلبت كيس بازلاء مجمداً من الثلاجة ووضعته على الكدمة بإحدى يديها، بينما بالأخرى حضرت الطعام وصنعت كوب شاي وحملت الصينية لغرفة النوم. وجدته على السرير يغطي عينيه بذراعه. ظلت واقفة أمامه والصينية بين يديها حتى أزاح ذراعه وطالعها. أذهلها أن ترى وجهه مبتلاً بالدموع لأول مرة منذ مات أبوه وهو في بكالوريوس طب: - «أنا اسفة يا ياسر. سامحني يا خويا والنبي.. حقك عليا».

لما انتهى من الطعام نظر لها لأول مرة وسألها: - «هنعمل إيه في المصيبة اللي حلّت على دماغنا دي؟ هنسيبلهم ابننا؟».

- «ابننا؟ قصدك مين فيهم؟!».

نظرا لبعضهما في صمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٢-

ذهب ياسر إلى الريف في حياته مرتين: مرة وهو في الثالثة قيل له إنه قضاها مختبئاً وراء أمه، مرتعداً من الأبراص والصراصير، يقفز في مكانه كلما قرصته ناموسة أو انقضّت عليه امرأة من أقاربهم لتمنحه قبلة مبتلة في فعل أشبه بالشفط منه إلى التقبيل، والمرة الثانية عندما تقدّم لخطبة فاتن في دوار العمدة حيث هو الآن.

استيقظ من النوم منهكاً كمن لم ينم. ألقى نظرة واحدة على حماته، السيدة التي منذ تلاقت عيناهما لأول مرة أيقن أنها لا تكنّ له أي شعور من كتالوج المشاعر الطيبة المتعارف عليها: ثقة، ود، إعجاب، احترام، استظراف... وكانت تلك النظرة كافية ليرفض تناول الإفطار ويعلن أنه سيخرج للتريّض. قالت فاتن بهلع:

- «والجماعة اللي جايين دلوقتي؟».

- «مش هاتأخر».

- «طب بس استنى معقولة هتخرج كده؟ ما يصحّش يا خويا الناس تاكل وشّنا.. خشّ اقلع الشورت والتي شيرت دول وأنا هاجيبلك حاجة من دولاب أبويا».

صار يمشي متعثراً في جلباب أطول من اللازم، حيك بقماش أكثر من اللازم. يسير بمحاذاة مجرى الماء الضيق الذي يشقّ حقل البرسيم. ففي أثناء جولته التي كادت تقتله مللاً وظمأً، قابل لمّة فلاحين كانوا يجلسون -لسبب غير مفهوم- عند طلمبة صدئة تبدو وكأنها لم تفرز قطرة ماء منذ ثلاثين سنة. «يا بوي.. شكلك حران قوي يا داكتور! امشي جنب الميه عشان الطراوة». شكرهم ومضى وسمعهم بأذنه يسخرون منه «ياكش يقع في الميه ولا يعصّه قرموط». لم يستدِرْ لمواجهتهم طبعاً، بل اكتفى بمسح عرقه وهو يتخيل تعليقاتهم لو كانوا رأوه بالشورت الفيراري والتي شيرت اللاكوست.

هو الآن في وسط الحقل تماماً، أفرع البرسيم من حوله تميل جماعة فيتدرج خضارها بين الفاتح والداكن حسب اتجاه الريح.. سجادة مخمل أخضر تزينها طيور أبو قردان المتناثرة في الحقل كلفائف قطن أبيض. أهذا ما يعتبره الناس جمال الريف؟ ربما.. لو أنه يسير الآن محاطاً بدائرة زجاجية مكيفة الهواء عازلة للحر والنهيق والذباب!

استدار عائداً، ولما تراءى أمامه البيت انقبض قلبه ووقف مكانه، ووقفت معه فوراً ذبابات تلازمه بولاء منذ خرج. دوار العمدة مستطيل جيري دميم. ثلثه السفلي فاقع الحمرة وما فوق ذلك كان يوماً ما أبيض. اكتشف أن هذه

النقطة بالذات حيث يقف الآن قد تكون الأهدأ في المزرعة كلها. لا يسمع إلا جراراً يدور في مكان ما وطائراً ينقّ بتكاسل في شجرة ما. مكث لحظات ينهل من السكون، يؤجل لحظة مواجهة آتية آتية.

يعرف أنه على وشك رؤية الطفل الذي تقول حماته إنه ابنه الحقيقي.. لكنه لا يعرف ماذا يقول الشخص في ظرف كهذا؟ كيف يتصرف؟ كيف يشعر؟ وماذا عن آدم؟ هل ينسى الرجل ابناً كبر أمام عينيه منذ كان كومة لحم حمراء حتى بات يمشي ويتكلم ويذهب للمدرسة؟ لكن آدم ليس من صلبه.. هناك آخر.. آخر موجود الآن داخل هذا المستطيل الجيري الشاخص أمام عينيه.. الابن الصحيح.. الابن المفقود منذ وُلِد.

لن تتبدد حيرته ولو ظلّ مختبئاً في حقل البرسيم هكذا طوال اليوم. هناك مهمة أتيا من أجلها ويجب إنجازها وبسرعة. استأنف السير متثاقلاً لكنه توقف ثانية على الفور: فقد غاصت قدمه حتى الكاحل في كتلة ملغزة.. وسادة نيئة باردة. للوهلة الأولى ظنها كتلة طين، ثم رآها تتحرك، تنبض، ثم اكتشف أنها مغطاة بسرب ذباب طار احتجاجاً على هذا الانتهاك من قدمه، ثم عاد فحطّ من جديد وكأن شيئاً لم يكن.

بزفة ذباب إذن وبقدم يزخرفها رَوَث حيوان ما وبجبهة تلمع عرقاً وأخيراً بالكثير والكثير من اللعنات أكمل ياسر طريقه للبيت. لمح فاتن تنتظره في الشكمة، لكنه تجاهلها وسار بعزم حتى صنبور الماء في فناء البيت الأمامي فغسل قدميه والبلغة ووجهه ورأسه، ثم صعد إلى حيث تقف زوجته. أقبلت نحوه وهمست بلهفة:

- «اتأخرت كده ليه يا خويا؟ استعوأتك وكنت هاشيعلك حد.. واحنا مش عايزين حد ياخد خبر».

نظر لها بما تمنى أن يكون احتقاراً ملحوظاً.. كل هذه السنين في لندن ولا تزال زوجته تتحدث كأنها نهضت للتوّ من وراء جاموسة.

قال بضجر:

- «همّ وصلوا؟».

أومأت ونظرت له بعينين مشفقتين. تجاهل نظرتها وزمجر:

- «امشي يلّا قدامي في اليوم المهبب من أوله ده».

هرولا عبر الردهة (ذات الكليم الأحمر المبروم على جنب منذ مُسح البلاط فجراً)، فغرفة الجلوس (ذات الشيش المرجّل والجدران الفزدقية والأرائك المستندة للحائط التي تسميها حماته الكراويتة)، فغرفة الطعام (ذات الثريا

الكريستال عصفور والطاولة الأبنوس التي تَسَعُ عشرين ضيفاً). وفي أقصى أعماق البيت وقفا أمام باب مغلق، باب حجرة الضيوف التي قُرأت فيها فاتحتهما في العصر الجليدي الأول - أو هكذا يخيل لياسر الآن.

مدّت فاتن يدها لمقبض الباب ثم سحبتها والتفتت لزوجها. إلى جانب الخوف لمح فيهما الآن شيئاً آخر.. رجاء، توسّل. كأنها تنتظر منه أن يقول شيئاً يهدّئ روعها.. أن يتفوّه بكلمات تسجل اللحظة الفارقة. لكنه اكتفى بليّ فمه بنفاد صبر، فاستدارت وهي تتمتم بهمس لا يكاد يسمع «يا لطيف.. يا لطيف». ثم فتحت الباب.

للوهلة الأولى أحسّ ياسر أن الغرفة ممتلئة عن آخرها، تغصّ بنساء وأطفال.. ذكور وإناث.. بشر وحيوانات.. قعوداً ووقوفاً. لكن غبار عقله انقشع عن نفر يُعدّون على أصابع اليد الواحدة. فحماته الحاجة أسمهان تتوسط كنبة الصالون المذْهب ذي الزخارف المعقدة، تسند يداً على فخذها بينما تجمّدت الأخرى في الهواء كأنها قوطعت في وسط خطبة عصماء. وعلى الأرض بجوار قدميها تقرفص فلاحة في ثوب مشجرّ زاعق اللون، هبّت واقفة فور دخول ياسر وفاتن، نظرت للأرض وغطّت فمها بكمّ جلبابها. على أحد كراسي الصالون يقف طفل وسخ في وضع الاستعداد للقفز، وعلى الأرض، بجوار الفلاحة، يربض طفل آخر ممسكاً بضفدع حي بكلتا يديه.

قالت حماته بنبرة التربّص التي لاحظ أنها تختصه بها

- «يا مرحب يا مرحب.. اتفضل يا دكتور».

خطا ياسر خطوة واحدة في الغرفة كانت كافية ليتعرض لهجوم من كائن ما، نظر للأسفل مفزوعاً فوجد بطة قبيحة الوجه تجذبه من ذيل الجلباب. أخذ يركلها لتبتعد مشمئزاً ومذهولاً في الوقت نفسه أن تضحك حماته من المشهد. رمقها بغيظ لكنها تجاهلته ووجّهت حديثها للطائر:

- «يخرب مطنك يا بطوط.. إنت فاكر نفسك مين؟ شيخ الغفر؟!».

انحنت فاتن فحملت الطائر وأخرجته من الغرفة وهي تقول:

- «يا ماما ادبحي دكر البط ده بقى.. ما تخافيش مش هاجيب سيرة لآدم».

- «لا ممكن أبداً يحصل.. طب ده آدم هو اللي مسميه بطوط.. وكل ما بتكلموني على البتاع ده الكمبيوتر بيخليني أشيله عشان يشوفه في الكامرا!».

بعد أن عاد الهدوء قالت أسمهان للفلاحة:

- «مدي إيدك سلمي على سيدك الدكتور يا بِهْ».

غطّت الفلاحة يدها بطرف كمها ومدتها نحو ياسر.. لكنه وضع يده في جيبه ونظر لزوجته وقال:

- «هي الأوضة هنا قبلي ولا إيه؟».

أطلقت فاتن ضحكة إحراج وأمسكت باليد الممدودة بدلاً عن زوجها وهي تقول:

- «إنتي مكلفة نفسك ليه بهانة وجايبة شيء وشويات؟ هو انتي جاية لحد غريب؟».

قالت بهانة وهي تعيد نظرها للأرض:

- «فضلة خيرك يا ست وخير الست الكبيرة».

على المنضدة في وسط الصالون لمح ياسر لفة جرائد مكعبرة تظهر من جوانبها حبات فاصوليا وورردات قرنبيط. رائحة الخضار زادت من عطانة الغرفة التي يبدو جلياً من هوائها الراكد أنها قلما تُستخدم. حدّق في الطفلين اللذين لم ينطقا منذ دخل مع فاتن الحجرة. سمع أسمهان تقول: «ياختي تعيشي وتجيبي.. الله! ما تقعد يا دكتور ولا عاوز عزومة؟!».

لكن الدكتور لا يعبأ بحماته.. فكل انتباهه انصبّ على هذا الطفل الرابض على الأرض يحملق فيه دون أن يطرف له جفن.. نسخة مصغرة من فاتن وياسر في نفس الوقت. فقد أخذ من فاتن خضار العينين ومن ياسر ضيقهما، أخذ منها شقار الشعر ومنه تجعيده، جبهته الواسعة، ذقنه المربع، عوده الفارع.

انتزع عينيه من الصبي ونظر للآخر الذي وقف فوق الكرسي. ما أشبهه بآدم! داهمته لأول مرة الأبعاد الكاملة للنائبة التي نزلت بهم: المسألة تتعدى أن لآدم أبوين آخرين، هناك إخوة، وجدود، وأعمام، وأخوال.. إلى ما لا نهاية، خط نسب منفصل تماماً.. ثم تذكر فجأة تحليل الـ DNA الذي سافرا مصر كي يجرياه للطفل المشتبه بأنه ابنهما... وكاد يضحك. هل يحتاج الأمر لتحليل؟ ألا يكفي النظر للسماء للتحقق من سطوع الشمس؟ ولكن كيف فلتت بها هذه الملعونة التي ينادونها بهانة؟ كيف برّرت أعجوبة وراثية كهذه للناس؟ طفل أشقر طويل عريض يولد لعائلة كل أفرادها سمر قصار ضامرون.. يجب أن يتذكر ألا يستهين أبداً بكيد النساء.

شقّ الصمت نقيق الضفدع الذي يمسكه الطفل المقرفص على الأرض وقال ياسر للا أحد بالتحديد:

- «الأوضة خنقة جداً.. نقعد بره أحسن».

ثم استدار وخرج دون أن ينتظر رداً. من خلفه جلجلت حماته محتجة:

- «ما تخلّونا هنا أحسن في الدِرا!».

وردّت فاتن:

- «بره كويس برضه.. آهو العيال تعرف تلعب».

وأخيراً جاء صوت بهانة تائهاً.. كمن يذكّر الناس بوجوده:

- «أسيّأ لك الأوضادي يا حجّة؟! اطلع السطوح أنضف عشة الفراخ طاه؟».

هرول ياسر عبر غرفة الطعام فغرفة الجلوس فالردهة ذات الكليم المبروم جانباً. فتح باب البيت على مصراعيه وخرج للشمس الحارقة من جديد.. أي شيء أرحم من الغرفة الخالية من الأكسجين.

في وسط الشرفة الخارجية التي تطل على فناء البيت الأمامي -والتي تسميها فاتن وأمها الشكمة- وجد ياسر أرجوحة بامبو أكلت الشمس لونها الذي أريد لها في الأصل فبات من المستحيل تخمينه الآن. جلس متوسطاً الأرجوحة بحيث لا يشاركه فيها أحد. أخرج النظارة الشمسية من جيب الجلباب وثبّتها على أنفه، ثم عقد ذراعيه وقرر ألا ينبس بكلمة. بعد لحظات لحق به الباقون: الطفلان في المقدمة، يتسابقان من أجل اللعب، ثم النسوة الثلاث.

أحضرت فاطمة مقاعد جلسن عليها بجانب ياسر بينما الولدان يتبادلان ركل الضفدع تعس الحظ من أحد طرفي الشكمة للآخر. هزّ ياسر رأسه يميناً وشمالاً بتعجّب وفكر في رد فعل آدم لو شاهد هذا النوع من اللعب، على الأرجح كان سينهار باكياً ويطلب من أمه الاتصال بالشرطة لوقف جريمة الـ animal cruelty هذه.

قالت أسمهان:

- «اخص عليكي يا بت يا بهانة.. لقيتك ما سألتيش.. قلت أشيعلك آني».

- «العفو يا ست أسمهان.. ده إنتي فوق راسي من فوق وربنا اللي يعلم».

خرجت فاطمة من البيت بصينية تتلألأ عليها أكواب الشاي فانجذب الطفلان فوراً نحوها. شدّ الكبير جلباب أمه وقال دون أن يحوّل عينيه عن الصينية: « آمّا.. آمّا.. عايز شطيرة». فوراً ردد الصغير كرجع الصدى: «آمّا.. عايز شطيرة يامّا».

- «بس يا واد انت وهو قطع لسانكو.. عيب ما يصحش. سامحيهم يا ست».

لكن فاتن قاطعتها:

- «ليه كده يا بهانة.. ده بيتهم ومطرحهم. تعا هنا يا حبيبي.. انت إسمك إيه؟ الله.. القطة أكلت لسانك ولا إيه؟».

- «ردّ على الست يا ولا! شوف ياختي الواد اللي عامل فيها وش كسوف! الكبير دهوّن اسمه زكريا.. عنده ست سنين.. والصغير ده بلال.. خمس سنين.. آخر العنقود. آني ما كنتش هاجيبهم معايا بس فاطنة صممت.. أمّا جاتني الصبح قالتلي الست عايزاكي ولازمن تجيبي العيلين الصغيرين معاكي يا بهانة.. عشان يعني ما لقيتهم شبطانين فيا. قالتلي ما تكسريش بخاطرهم.. والحاجة ما هتمانعش».

شهقت أسمهان:

- «أمانع! أمانع ده إيه؟ ده إحنا زارنا النبي».

قامت فاتن فأمسكت بكل طفل في يد وهي تقول:

- «تعا يا فاطنة ورايا على المطبخ،. وانتو هتيجوا معايا بنفسكو عشان تقولولي على كل الأكل اللي بتحبوه».

راقب ياسر مذهولاً زوجته وهي تختفي داخل البيت مع الولدين: أبهذه البساطة تمسك بيد زكريا، تلمسه؟ تسأله وتنحني لتسمع رده؟ تخيلها في المطبخ معه تأخذ منه عينة لعاب ومسحاً لتجويف الفم من أجل جهاز الـ (Mobile DNA) الذي جلباه من لندن، وتساءل من أين لها برباطة الجأش هذه؟! من أين لها بكل تلك الثقة وكأنها تلتقي ابنا ضالّاً كل يومين؟! أحس أنه يشهد جانباً من شخصية زوجته جديداً عليه تماماً. لم يهدّئ روعه إلا سماعها تنتحب ليلاً، طمأنته اهتزازات الفراش تحت نشيجها، وعندئذ فقط تحوّل تظاهره بالنوم إلى واقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٣-

بعـد أسبوع من عودتهما لندن ظهرت نتيجة الـ DNA مدوية: زكريا هو الابن البيولوجي لياسر البحيري وعقيلته فاتن.. أما بلال -الذي أخذت منه فاتن هو الآخر عينة للتحليل- فقطعا شقيق آدم. وبانقضاء الأسبوع كان شيء آخر قد تأكد: لفاتن حقاً جانب آخر مجهول اكتشفه ياسر الآن فقط. فبينما انزوى هو في المستشفى، مختبئاً منها ومن آدم وكأن النائبة التي حلّت بهم جميعاً ستتبخر هكذا من تلقاء نفسها، انتصبت فاتن ممسكة بزمام الأمور.

وكان أن عاد للبيت عصر أحد أيام يونيو ليقابل برائحة شهية، وليجد زوجته جالسة إلى طاولة المطبخ تمسك قلماً وتقرأ في كومة أوراق وحفنة كتب مفتوحة.. كتب يعرفها ياسر جيداً: مراجع الطب التي اقتصر نشاطها منذ آخر مرة رسبت فيها فاتن في امتحان المعادلة على الوقوف على رف المكتبة لتجميع الغبار. غطّت فاتن القلم وقالت بابتسامة عريضة: - «آدم بيلعب عند سام.. أنا قلت نخلينا وحدنا عشان نعرف نتكلم براحتنا».

- «نتكلم؟ أنا عندي صداع وطالع أنام ساعتين قبل ما أنزل شيفت بالليل».

- «إنت نازل تاني برضك؟ من ساعة ما رجعنا من مصر وانت ما بتقعدش في البيت!».

أطلق زفرة ازدراء:

- «هو فين البيت ده؟ وهو ده بيت الواحد يعرف يستريح فيه؟ وبعدين ستيفاني طلبت مني أشيل الشيفت عنها.. وانتي عارفة أنا ما برفضلهاش طلب».

لحقت به وهو يهمّ بصعود السلم وأمسكت بذراعه:

- «استنـى بس.. طب انت أكلت حاجة؟».

- «طلعيلي الغدا فوق».

صعد أول درجة ثم لمح عبر نافذة الحديقة منظراً غريباً. طاولة الحديقة عليها المفرش الأبيض الذي لا يخرج إلا للضيوف وكوبان من مشروب وردي اللون، وأطباق صغيرة مغطاة.

- «مستنية حد ولا إيه؟».

- «مستنياك! تعالى بس!».

تبعها على مضض للحديقة، وجلس الى مائدة ذوقها رفيع والحق يقال.. شموع معطرة وورد ومقبلات متنوعة: بسكوت مملح وعين جمل وزبيب وخبز ومكعبات زبد ومخلل بيتي. إلى ما ترمين يا فاتن؟! ارتشف قليلاً من عصير الرمان، وقال: - «هو ده الأكل؟».

- «اللازانيا في الفرن فاضلها ربع ساعة بالكتير.. ياسر أنا.. أنا كنت عايزة أقول حاجة».

أطلقت سعلة خفيفة وأكملت:

- «ياسر.. إنت خايف».

تجمّدت لقمة خبز محشوة بالمخلل في منتصف الطريق لفم ياسر.. لم يتوقع ما سمع.

- «أنا كمان خايفة يا خويا.. خايفة قوي.. بس اسمع مني ورحمة أبوك الغالي. لا انت ولا أنا نقدر نستغنى عن آدم.. أديني قلتها أهو.. ده نني عنيك من جوه.. أعز بني آدم على قلبك».

دفس ياسر اللقمة في فمه ومضغ قليلاً ثم قال بفم لا يزال ممتلئاً: - «كان.. كنت فاكرُه ابني. دلوقتي كل حاجة اتغيرت».

- «مافيش حاجة اتغيرت. آدم ده هو هوّاه اللي عايش في حضننا بقاله ست سنين. إنت اتكفلت بيه وما قصرتش في حقه، ومش هترضى ساعة الجد تسيبه يعيش مع الناس دي اللي انت شفتهم بعينك.. يهون عليك ترميه الرمية دي عشان مش لحمك ودمك؟».

- «الناس دي تبقى أهله.. حتى لو فُقرا. وأكيد مش هيقسوا على ضناهم. وبعدين مش أحسن ما لحمنا ودمنا الحقيقي هو اللي يترمي الرمية دي؟!».

- «أنا ما قلتش كده!».

نهض بعنف فانقلب الكأس وانسكب العصير على العشب:

- «مافيش فايدة فيكي.. بتقولي كل حاجة وعكسها.. أنا غلطان.. ومش عايز أطفح».

استدار ليمضي ثم اخترقت أذنه ثلاث كلمات:

- «إحنا هناخد الولدين».

لم يستوقفه ما قيل فقط، بل كيف قيل. نبرة جازمة، قاطعة، حل بديهي، صوت امرأة متأكدة مما تقول. نظر لها في حيرة، لا يفهم ما تقول..

- «إحنا الحمد لله ربنا موسع علينا. وأنا عمري ما هاخلف وانت عارف.. بسبب اللي حصللي في ولادة آدم.. قصدي في ولادة.....».

ظلت للحظات تشير بيديها الاثنتين في الهواء في صمت، كأن لسانها شُلّ، وأخيراً صاحت: - «المهم! ربنا بيعوضنا بولد تاني».

- «ما كفاية لفّ ودوران وقولي قصدك إيه بالظبط!».

- «طب اقعد ياخويا وأنا هاقولك.. بالهداوة بس».

هوى في المقعد ثانية وهو يتأفف:

- «اللهم طولك يا روح!».

- «أنا فكرت في طريقة.. مش مطلوب مننا إلا إننا نسافر مصر نقابلهم، أنا وانت بس.. ويعني.. هنقول.. يعني».

- «مالك بتهتهي كده ليه؟ خلاص فهمت.. قصدك نرميلهم قرشين.. هم عموماً فُقَرا قوي. وعيالهم كتير.. بس المسألة مش بالسهولة دي».

- «لا! مش ده قصدي!».

- «وبعدين القرشين دول يطلعوا كام يعني؟».

- «ياسر! أنا لا يمكن أفكّر في فكرة غبية كده!».

- «إنتي اتخبطتي في نافوخك ولا إيه؟ مين ده اللي قال فكرة غبية؟!».

لكن ذهوله من وقاحتها كان أقوى من احتجاجه. خرجت صيحته مائعة وواصلت فاتن الحديث.

- «أصل لناس الغلابة دول اسألني أنا عنهم.. شايلين كرامتهم فوق دماغهم على طول زي طاجن الست. مستحيل يبيعوا ضناهم عشان الفلوس. هم هيفهموها كده».

- «طب ما هي فعلاً كده يا فالحة!».

- «هي هتبقى كده لو عرضنا فلوس.. عشان كده أنا....».

- «أنا نفسي أفهم بس.. إنتي وكنتي بتطلعي في الروح زي ما بتقولي.. إنما أمك اللي عاملة نفسها كبيرة البلد، ما عرفتش تشيل حفيدها ولا تخلّي عينها عليه؟ تلاقيها هي اللي شجعتك تهربي أصلا!».

- «ما حصلش وربنا يا خويا.. دي لما شافتني قدامها كأنها شافت عفريت».

ألجمه صدقها، صوتها شعّ إحساساً بالظلم من هذا الاتهام لأمها.. ثم إنه يريد أن يصدّق أن حماته التي تبث نحوه موجات عداء بلا سبب مفهوم منذ أول يوم لم تحرض ابنتها ضده، بل يريد أن يسمع أنها استنكرت فعلة ابنتها في حق زوجها المغبون.

وكأن فاتن قرأت ما يدور في ذهنه:

- «دي ماما كانت هتلم عليا ميت أبو النور كلها، قعدت تزعق وتقول قوم يا عمدة من تربتك شوف بنتك اللي عايزة تجرّسنا!! وقالت لي بالحرف إنتي لازمن تبوسي تراب رجلين جوزك، وما تسيبيهوش إلا لما يسامحك».

انتهزت فاتن دهشة زوجها وواصلت الحديث:

- «ياسر أنا ما بانامش من ساعة المصيبة دي.. وإذا كانت دي غلطتي فأنا ملزمة ألاقي الحل.. وأديني لقيته وهادلك عليه. بس أبوس إيدك اسمعني للآخر.. اوعدني ما تقولش رأي النهارده، ولا اليومين دول خالص. توعدني؟ تحلف بتربة أبوك؟».

لم يسبق له أن التزم لفاتن بوعود، لم يسبق لها أصلاً أن تجرأت فطلبت شيئاً كهذا. لكن الفضول يفترسه. قلب فمه بتبرّم وتعطّف عليها بإيماءة ضجِرة.

وهكذا بدأت فاتن تتحدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السماء استحالت شمس يونيو قرصاً أحمر وتخضبت معها السحب. ظلا جالسين في الحديقة حتى انقشعت الغيوم عن قرص آخر أصغر، فضي كامل الاستدارة تؤنسه بضعة نجوم. لم يقطع حديثهما -أو بالأحرى حديث فاتن وذهول ياسر- سوى قيامها: مرة لإطفاء الفرن وأخرى كي تتصل بزينة. عادت إلى مقعدها بوجه منشرح وقالت: - «بعد إذنك يا ياسر.. أنا وافقت آدم يبات عندهم الليلة دي.. عشان اللي بنقوله ده هو اللي هيخلي ولادنا الاتنين في حضننا طول العمر».

أطرق ياسر رأسه قليلاً، ثم أخرج الهاتف من جيبه. بعث برسالة من حفنة كلمات: «آسف. لن أعمل الليلة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-١٤-

مـر على تلك الجلسة التاريخية شهران شهدا تطورين مهمين: نجحت فاتن أخيراً في امتحان معادلة الطب، وأصبحت حائزة لتصريح مزاولة المهنة من سلطات جلالة ملكة بريطانيا العظمى. حدث هذا -خلافاً للمرات السابقة- دون أي إلحاح من زوجها. تظاهر ياسر حينها أن الأمر لا يعنيه. لكنه لم يستطع في الأيام التالية تجاهل التحسّن الذي طرأ على كيمياء مخه. استيقظ صباح يوم أحد في يوليو -بعد نجاح فاتن بخمسة أيام بالضبط- منشرحاً، مقبلاً على الحياة. سرّه أن يكتشف أن الطقس داخل رأسه بنفس دفء وسطوع طقس شمال لندن اليوم.

قرر أن يقيم حفل شواء في حديقتهم، وأن يدعو زينة وأسرتها (وهو بمثابة غفران ياسريّ للكبيرة المتمثلة في أنهم في الحقيقة بوسنيون لا إنجليز أصليين). كان يوماً سعيداً لم تشهده حديقة منزل الدكتور ياسر البحيري منذ أمد. حرص ياسر وهو يقذف شرائح الـ«ستيك» على الشواية، وهو يذوق السَلَطة ويطلب زيادة الليمون، وهو يحادث زوج زينة، وهو يركل الكرة مع آدم وصديقه، حرص أثناء كل ذلك أن يجري في رأسه حسابات معقدة وعلى فترات منتظمة يقيس بها صمود حالة الإيجابية التي استيقظ بها:

«factor 3 السيروتونين: أداء طيب – factor 2, 7: أداء يفوق التوقعات - الاستياء المعتاد من فاتن: منخفض إلى متوسط / تحت السيطرة».

أما التطور الآخر المهم والذي ربما كان -أو لم يكن- مرتبطاً بالأول، فهو موافقة ياسر بعد كثير من التردد على خطة فاتن.

واليوم، يوم تنفيذ الخطة، انطلق الدكتور لعمله في السادسة صباحاً كي يتفادى رؤية آدم. كيف يمكن له أن يراه في يوم كهذا؟ ما الذي سيقوله له بالضبط؟ شيئاً من قبيل «صباح الخير يا ابني.. أنا وأمك على وشك أن نرتكب جريمة.. مخالفة بسيطة كده للقانون.. وبالمناسبة بقى هي مش أمك.. وبالمرة خلليني أقولك: ولا أنا كمان أبوك».

في وقت لاحق من نفس الصباح جلس آدم يلعب بالليجو على سجادة غرفة الجلوس، بينما في الخارج تعلن موجة برد خريفي عن قدومها بجنون. النافذة الموصدة طويلة وبعرض الحائط، باب من زجاج. من خلالها يرى آدم حديقة البيت الخلفية وما وراءها: الشارع الصاعد لأعلى، البيوت ذات الأسطح الهرمية الحمراء، أسلاك الكهرباء ترتخي ثم تتشنج كمن أصابه الصرع، غيوم بلون الفولاذ. شيء فظيع يوشك أن يحدث. الشجر يتململ. الشمس قرص شاحب الصفرة، نجمة تشيخ أمام عينيك. درجة الحرارة تهوي. لا أطفال

يلعبون في الحدائق الخلفية اليوم. جميعهم بالداخل كآدم على خلاف المعتاد. يتخيلهم جميعاً جالسين كما هو الآن. يلعبون بقطع الليجو، يشاهدون التلفزيون، يلونون، يقرأون، شأنه هو كل يوم. لا يتضايق آدم من اللعب وحده، لا يمانع المكوث في البيت. لكن أباه يصف نشاطاته تلك بـ«شغل البنات»، ويقولها بلهجة توحي أن هذا شيء سيئ للغاية.

البيت من حول آدم كائن حيّ، صوته هو زنّة مجفف الملابس، متقطع كالزغطّة. رائحته هي تفاح حديقتهم الذي يستكمل نضوجه الآن في كيس ورقي بالمطبخ، طعمه بيض بالعجوة (ذلك الصنف الذي لم يسمع به أحد في المدرسة).

نتيجة الحائط تشير إلى ١٦ أغسطس والساعة إلى الحادية عشرة صباحاً. وثب آدم واقفاً، وأصغى لأي صوت يستدلّ به على مكان أمه في البيت، تراجع خطوتين للوراء ليتأمل القلعة التي يبنيها منذ يومين، يختار أفضل مكان لقطعة الليجو الأخيرة، قمة برج الحراسة. لكن الصمت يلفّ البيت، كل ما أتاه من أصوات كان عبر النافذة: ضربة على الطين يعقبها حفيف ورق شجر يابس.. ضربة فحفيف.. ضربة فحفيف. جارتهم تكنس الأوراق المتساقطة في حديقتها. وأخيراً وضع آدم القطعة مكانها وخطا خطوة للخلف ليتأمل القلعة في شكلها النهائي.

عندما صعد للطابق العلوي وجد أمه جالسة على الفراش تتكلم في الهاتف وتدير ظهرها للباب، تتحدّث بالعربية وهو ما يعني احتمالاً من اثنين: على الخط إما بابا أو تيتة أسمهان.

آدم ليس ضليعاً في العربية، لكنه فهم على الأقل أن أمه تتحدث عنه، فقد سمع اسمه يتردد أكثر من مرة. عند الباب نادى «مامي؟» ، التفتت إليه مبقية الهاتف على أذنها ولم تقل شيئاً، عيناها حمراوان. صياح جدته عالٍ جداً، ملأ الغرفة فجأة. على السرير صور كثيرة كلها لآدم، آدم رضيعاً، آدم يحبو، يضحك، يبكي، يقود دراجة، آدم في أول يوم مدرسة، أشاحت أمه بوجهها وقالت بفحيح غاضب:

- «وطي صوتِك يا ماما مش كده.. حواليكي ناس كتير يقولوا إيه بس؟».

قفز آدم إلى السرير وأخذ يقلّب في الصور. كم كان رضيعاً جميلاً! ما أسمنه! وما أوسع ابتسامة أمه! أحسّ أن أمه تنهي المكالمة فاحتجّ؛ لأنه لم يكلم تيتة، لكن احتجاجه قوبل بالتجاهل. باغتها فانتزع الهاتف من يدها وهتف: «هالو تيتة! إزيك يا حبيبتي!» جاءه صوت جدته غريباً، كصوته عندما يحتقن حلقه. في الخلفية صوت قرآن عالٍ جداً جداً، يغطي على ما تقوله جدته. سألها على «بطوط»، حيوانه الأليف الذي ترعاه تيتة نيابة عنه. لكنه لم يتلقّ رداً سوى

استمرار التلاوة القرآنية مع بعض الزفرات المكتومة من جدته. لما أخذ يكرر «آلو.. آلو..» أنهت أمه الاتصال.

- «هي تيتة عيانة يا مامي؟».

- «يمكن يا حبيبي.. تلاقيهم شوية برد.. ما تاخدش في بالك».

- «أنا عايز أشوف بطوط بالويبكام! اتصلي بيها تاني».

- «مش هينفع يا آدم.. تيتة دلوقتي عندها ضيوف كتير قوي وزحمة، وبعدين ما انت لسه شايف بطوط ديك النهار».

- «وكانت بتزعقلك ليه؟ وليه فاتحة القرآن عالي كده؟ أنا ودني وجعتني».

- «معلش يا حبيبي. سلامة ودنك.. يلّا بس نلمّ الصور دي. ساعدني يلّا».

- «إنتي كنتي بتعيطي يا مامي؟».

- «وبعدهالك يا آدم؟ ما تبطل أسئلة!».

يدا فاتن تعملان بسرعة.. تعيدان الصور في المظروف الأصفر الكبير.

- «هو مين اللي صوّرني كل الصور دي وانا بيبي؟».

ابتسمت بحزن وقالت وهي تلتقط صورة لآدم يحتضن قطاً يكاد يماثله حجماً:

- «بابا.. بابا كان بيموت فيك، كل دقيقة يقوم يصورك».

- «هو بابا لسه بيموت فيا يا مامي؟».

طالعته أمه بعينيها الحمراوين. تركت الصور واحتضنته، قرّبت وجهها من وجهه حتى تلامست الجبهتان. قالت:

- «ده سؤال برضك يا دُومَا؟ بابا بيحبك دلوقتي أكتر من الأول.. لما تكبر هتعرف هو وافق يعمل إيه عشان خاطرك».

نهضت وقالت:

- «استناني تحت.. أنا نازلة دلوقتي».

كان يجلس في المطبخ، يرسم طفلاً مكتنزاً محاطاً بأب وأم مبتهجيْن عندما صدح قرآن عال في الطابق العلوي.

وعلى هذه الخلفية نزلت أمه السلم متّشحة بالسواد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-١٥-

السـيارة نصف نقل. يدلّلها سائقها كثيراً. يزوّقها بعقود الفلّ الطازج لمعادلة ما يلصق بها من روائح: خضراوات وأنابيب بوتاجاز ودواجن وخرفان ومعسل وبنّ وشاي وعَرَق، ولُب كالذي يقزقزه السائق الآن. زجاجها مزدان بالأعلام الملونة والملصقات التي تتنوع رسالتها ما بين الدين «صليت على النبي اليوم؟»، والفخار الوطني «الحلوة دي من المنصورة»، والبارانويا «ما تبصش كده يا عبيط، أمّورتنا دي بالتقسيط»، وإرشادات لتنظيم المرور «يا تعدّي يا تهدّي». مع أبسط حركة على طرق القرية الوعرة تهتز أشياء متدلية كثيرة في الداخل والخارج: فردة حذاء طفل وليد، دبّ أحمر صغير، حدوة حصان بلاستيك، عين زرقاء تتوعد الحاسدين.

السائق يقود حُلوتَه متمهلاً، يأخذ وقته، يستمتع بقزقزة اللب. مهمة اليوم تقتضي التلكؤ. يجب أن يمرّ بشوارع القرية كلها حارة حارة وزقاقاً زقاقاً. يجب أن يتأكد أن القاصي والداني سمع بالنبأ. ويجب ألا يطيح بالمنادي الجالس -أو بالاحرى الواقف- جواره. فمؤخرة المنادي ليست على المقعد، بل على حد الشباك. ونصف جسمه الأعلى كله خارج السيارة. بيده اليسرى يستند إلى سقف السيارة، وباليمنى يمسك بالميكروفون. يردد طول الوقت:
- «انتقل إلى رحمة الله تعالى الطفل آدم ياسر البحيري، حفيد المرحوم العمدة حجازي، العزاء اليوم في دار المرحوم العمدة، ولا أراكم الله مكروهاً في عزيز لديكم، انتقل إلى رحمة الله تعالى الطفل آدم ياسر البحيري، حفيد المرحوم العمدة حجازي، العزاء اليوم في دار المرحوم العمدة، ولا أراكم الله مكروها في عزيز لديكم، انتقل إلى رحمة الله تعالى الطفل آدم ياسر البحيري، حفيد المرحوم العمدة حجازي، العزاء اليوم في دار المرحوم العمدة، ولا أراكم الله مكروهاً في عزيز لديكم».

لا يتوقف المنادي إلا في ثلاث حالات: أن يخونه صوته فينحني ليرتشف بعض الحلبة من ترموس خصّصه لتلك الظروف، أو أن يكاد يسقط في الشارع فيغلق الميكروفون ليُسمع السائق رأيه في قيادته وسيارته والسيدة والدته، وأخيراً وليس آخراً، قد يتوقف المنادي عن النداء للاطمئنان على مظهره، كل شعرة على رأسه يجب أن تظلّ مكانها تحت طنّ الجل الذي يأتي على معظم دخله، الدوجلاس المصبوغة بالأسود الغطيس لا ينبغي أن يعتريها عرق أو تراب، من المهم أن تظل هكذا: مشذبة، مرسومة بالمسطرة. لكن المنادي يعرف ربنا ويراعي ضميره. إذا توقف لأي من الأسباب السابقة للحظات فإنه ما يلبث أن يعود لأداء واجبه. يسلّك زوره ويستدعي أفضل طبقات صوته ويمطط النداء قدر المستطاع: «انتقل إلى رحمة الله تعالى الطفل آدم ياسر

البحيري، حفيد المرحوم العمدة حجازي، العزاء اليوم في دار المرحوم العمدة، ولا أراكم الله مكروها في عزيز لديكم».

وأخيراً انتهت الحلوة من عملها لليوم، قبل أن تعود أدراجها لبيت السائق توقفت أمام دار العمدة حجازي سابقاً/ الحاجّة أسمهان حالياً. لا بد من تقديم واجب العزاء للحاجّة. نزل الرجلان، السائق ضخم الجثة في جلبابه وعمامته والمنادي القصير الرفيع في الجاكت الجلد الأسود (رغم حر أغسطس) والبنطال القماش المحزّق. استقبلتهما تلاوة قرآنية تحسها رباعية الأبعاد: تأتيك من خارج البيت وداخله وأعلاه وأسفله في نفس الوقت. دخلا السرادق لحظة انتهاء ربع الحزب. سلما على الرجال واتخذا مقعديهما. كل كبارات البلد هنا. سمعا بعض النميمة: - «كان عيل عنده ست سنين».

- «لا.. خمسة».

- «بيقولوا اربعة بس»!

- «حد فاكر؟ ده كان عايش في بلاد بره وماجاش مصر من يوم ما اتولد.. اتولد هنا أهو.. في الوحدة الصحية بتاعتنا الكحيانة دي».

- «الكلام ده غلط. الواد اتولد في أكبر مستشفى فيكي يا منصورة.. الوحدة دي للي زيك يا محمد يا ابن عويس»!

- «ألا هو مات ازاي؟ حادثة ولا مرض الشر بره وبعيد»؟

- «لا ده ولا ديكهه.. ده قتله أعوذ بالله خواجة بيكره المسلمين»!

بانتهاء ربع الحزب قامت دفعة المعزّين تلك لتدخل أخرى. قابلتهم عند مدخل السرادق صبية دعتهم بصوت مسرسع للتفضل بتناول لقمة. قادتهم نحو الشكمة حيث نُصبت أكثر من طبلية، وحيث وقفت فاطمة كالحاكم بأمره، تشرف بنفسها على ضيافة الوفود. جلس كل أربعة أو خمسة إلى طبلية وعلى ضوء كشاف السرادق والنور الآتي من داخل البيت سَمَّوا وشمّروا السواعد، لحم عجل وأرز وخضار مسبّك بالصلصة. كلما يفرغ أحدهم تركض له الصبية بدورق ماء وطبق كي يغسل يديه. من يطلب الدخول لعزاء الحاجّة -كما فعل السائق والمنادي- عليه أن يتحدث لفاطمة شخصياً. عندئذ ينادي الحاكم بأمره على الصبية: - «فزّي يا بت يا معدولة.. خدي الرجالة جوّه يعزّوا الست».

بالداخل تلبس النسوة ثياباً في سواد سماء القرية. كلما دخلت واحدة أطلقت صرخة من الصنف الحيّاني ثم اتخذت مقعدها. تقدم الرجال في طابور ليسلموا على أسمهان التي جلست وسط الكراويتة جافة العينين تعتصر في يدها سبحة كهرمان في لون العسل المصفى، تسند السبحة في راحة كفّها ثم

تنطر حباتها بالإبهام بعيداً، الحبة تلو الأخرى تلو الأخرى، تنطر وتنطر حتى يبيّضّ إبهامها. فمن الضروري ألا تفكر فيما يدور من حولها، من المهم للجالس في المسرح أن يذكر نفسه بالواقع خارج الأحداث ولو باعتصار حبة كهرمان بين أصابعه.

إن دخلت البيت شخصية مهمة -كالعمدة مثلاً أو المأمور- تفسح النسوة المجلس كي يأخذ بخاطر الحاجّة.. لكن السائق والمنادي سلما وانصرفا. ربتت على أسمهان إحدى جاراتها: - «عيطي ياختي على الغالي.. ما أعز من الولد غير ولد الولد.. ما تحبسيش دمعتك».

لكن دمعة أسمهان -اليوم بالذات- قررت أن تنحبس.

جاءت فاطمة تهرول وتحمل الهاتف وتصيح:

- «الست فاتن! الست فاتن!».

- «ما لها يا بِهْ؟!»

- «ع التلفون!».

نظرت أسمهان حولها. تحتاج أن تكلم ابنتها بعيداً عن كل تلك الآذان المغطاة بالسواد. لكن كل شبر في البيت مشغول. خرج صوتها هستيرياً وهي تقول: - «خليكي معايا يا فاتن!!».

حملتها ركبتان يابستان من طول القعود. في الحمام سيدتان تفترشان الأرض. في غرفة النوم بنت الحاج خضير ترضّع. استدارت أسمهان لتخرج وهي تصيح في الهاتف: «خليكي معايا!!» لكنها تكعبلت في شيء لم يكن موجوداً من لحظة واحدة: وسادة غطاؤها ريش وحشوها شحم. تكومت على الأرض، وطار الهاتف إلى حيث لا تعلم، وانطلق فوراً صراخ النسوة: - «الست وقعت من طولها.. يا ديهوي.. الست أغمن عليها».

اندفعت نحوها خمس نساء في نفس الوقت، تجذبها الأيادي من ذراعها ووسطها ورجلها.

أخيراً انشقّت الغيمات السود عن فاطمة التي زعقت في الجميع: - «نوّري انتي وهي.. كله من بوز الإخص دكر البط ده.. ما قلتلك يا ست ندبحه ونخلص من رزالته! هاتي إيدك هاتي».

لكن أسمهان فرهدت تماماً، ولا تريد أن تنهض. صرخت بدورها: - «هاتي المحمول يا بنت المعدولة.. شوفيه اتنطر في أنهي داهية».

وأخيراً ظهر الهاتف. على سبيل المساعدة أمسكت به بنت الحاج خضير ووضعته على أذن أسمهان. لكن الأخيرة زغدتها بكوعها وصرخت: - «ابعدي عني يا بنت الكلب انتي وهي».

اعتلى الأوجه مزيج من الإحراج والحيرة، لكن الأقدام لم تتزحزح إلا شبراً أو شبرين. أمسكت أسمهان بالهاتف وسمعت ابنتها تقول: - «ماما.. إنتي سامعاني؟ ماما..».

- «آلو؟ أيوه يا فاتن! إيه اللي عملتيه فيا ده؟! حرام عليكي يا بنتي! هنروح من ربنا فين! إنتي سايباني لوحدي في الهم ده! ربنا شايف ومطّلع!».

جاء صوت ابنتها غاضباً بارداً كالفحيح وهي تقول:

- «وطي صوتِك يا ماما مش كده.. حواليكي ناس كتير يقولوا إيه بس؟».

فجأة جاءها صوت آدم، آدم الذي تتقبل جدته العزاء فيه اليوم.

- «هالو تيتة.. إزيك يا حبيبتي».

هذا كثير.. أكثر مما تمّ الاتفاق عليه وأكثر من تحمّل أسمهان. انطلق عويلها، وكأنه كائن مستقل بإرادة خاصة، لكنها جاهدت لتتكلم فخرجت الحروف ممطوطة وبلا معنى. انقطع الاتصال لكن أسمهان لم تنهض من موقعها على الأرض أمام غرفة النوم. أخذت تخبط بكفيها على رأسها وتولول: - «آني كنت عملت إيه بس يا رب؟ آني كنت عملت إيه بس يارب؟».

النسوة من حولها تمصمصن الشفاه وتتبادلن النظرات. تتطاير فوق رأسها عبارات فارغة: - «إلهي يربط على قلبك.. عليه العوض ومنه العوض».

لاحقاً، عندما تقدّم الليل وراحت النساء وسكت القرآن، ولم يعد يُسمع سوى صوت صراصير الحقل، عادت أسمهان لمقعدها على الكراويتة، جافة العينين تمسك بالسبحة الكهرمان. فاطمة تروح وتجيء، تعيد المقاعد مكانها، تكنس التراب من السجاد، تصبّن فناجين القهوة استعداداً ليوم عزاء جديد. لكن أسمهان لا تراقبها، فقد تجمّدت عيناها على الطائر السمين الشحيم الوفي العدواني العجوز الراقد قرب باب البيت. يظن نفسه كلب حراسة أو أكثر؛ يعتبر أنه رجل البيت.

فرغت فاطمة من عملها وأتت بخطوات عازمة:

- «قومي يا ست، ما هو آني مش هاسيبك إلا لما تفردي ضهرك على السرير».

همّت أسمهان بالقيام فقام الطائر المسنّ هو الآخر متثاقلاً، لا تكاد ساقاه تحملانه من فرط بدانته، سيتوجه للحمام حيث يمضي ليله كالمعتاد. تابعه أصبع أسمهان حتى غاب وراء عمود الصالة. همست: - «ادبحيه الفجرية يا فاطنة.. خليهم يقدموه للضيوف».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٦-

فـي دورة مياه النساء بمطار هيثرو مرايا كثيرة، صغيرة على مقاس الوجه وطويلة بطول الإنسان، فوق الحوض وجانب الباب، بِرَفٍّ لوضع أدوات المكياج وبدون، لكن فاتن تجاهلتها جميعاً. دخلت الحمام وأغلقت بابه الرمادي الخفيف، وأخرجت مرآتها من حقيبتها. علّقت الحقيبة على خطّاف خلف الباب، ثم ثبّتت المرآة فوقها بحيث تكون في ارتفاع الوجه. فكّت الإيشارب الذي يتدلى كالكوفية حول عنقها، جمعت شعرها للخلف ثم أحكمت الإيشارب حوله وفتحت الباب وخرجت. خُيِّل لها أن فتاتين إنجليزيتين تطالعانها باستغراب بعد أن دخلت الحمام بهيئة وخرجت بأخرى كجاسوسة في فيلم جيمس بوند. لكنها لم تعبأ بهما.. الإنجليز... من يعبأ بهم؟!

عبر مقاهي المطار ومتاجره اخترقت أمواج البشر إلى حيث ينتظرها ياسر. تذكرت نفسها هذا الصباح، وهي تخترق صفوف البشر في المدرسة لتوصّل آدم حتى باب الفصل. كانت تسير وتردد ما قالته له طيلة الأسبوع الماضي وكأنها تعويذة ما: ماما وبابا سيسافران لمصر «يومين أو تلاتة بالكتير!» وسيبقى هو مع آنتي زينة «زي المرة اللي فاتت!». عندما حان وقت انصرافها احتضنها آدم بشدة فجثت أمامه وهمست:

- «فاكر اللي قلتهولك يا دوما؟ المفاجأة اللي هاجيبهالك من مصر؟».

ابتسم مبتهجاً وأومأ برأسه:

- «آدم كمان هيبقى عنده أخ! وهتبقوا صحاب وتلعبوا مع بعض. بس إيه! ده سر بيني وبينك.. مش هنقول للناس دلوقتي».

قفز آدم في مكانه فرحاً وقفزت في رأسه نفس الاسئلة التي قصف أمه بها من قبل:

- «إزاي أخويا قدي بالضبط؟ إزاي كان في مصر لوحده؟»...

عشرات الأسئلة التي تبخرت أمام سعادة أنه سيصبح أخيراً من فئة أولئك الذين يمتلكون إخوة.

بمجرد أن وقعت عيناها على زوجها الجالس قرب بوابة الركوب استشعرت انزعاجه. يتلفت حوله كطفل تائه. بادرها صائحاً:

- «اتأخرتي ليه؟ ما فاضلش حاجة على الطيارة!».

نظرت في ساعتها وهي تجلس بجواره:

- «هو فين التأخير ده؟ إنت بس اللي قلقان».

رفع حاجبيه وابتسم بسخرية:

- «أما فعلاً ماليش حق.. هو في حاجة تقلق؟ شوية حاجات هايفه كده.. الطيارة هتفوت... ستمية جنيه إسترليني من اللحم الحي هيروحو علينا! وشايل في جيبي ورقة تدخّلني السجن، ورايح أقابل ناس وأبص في عينيهم وأكدب وأقول إن ابنهم مات ودفنته بإيديا دول، إنما ما فيش قلق خالص! المفروض أبقى فرحان وسعيد وحاطط في بطني بطيخة صيفي! باقولك إيه.. إنتي متأكدة إن ما كانش فيه حل تاني؟ دول ناس فُقَرا وأي مبلغ كان هيعميهم.. الستمية إسترليني دول كانوا كفاية قوي!».

- «ورحمة أبويا وأبوك ما كانوا هيقبلوا. ده حتي أمي اللي مش موافقاني أكدت لك إن الناس دي ما هتبيعش ضناها ولا بمال الدنيا».

- «يبقى الحل التاني.. اللي أنا وأمك قلنالك عليه».

- «حل إيه؟ إننا نحكيلهم كل حاجة ونبقى تحت رحمة اللي يقرروه؟ يعني أروح أعيط لهم وأقولهم أنا معدتش باخلف وادونا الولدين انتو مش فارقة معاكم؟ لا يمكن يرضوا بكده، الناس تاكل وشهم، ولو وافقوا الأول هيغيروا كلامهم قدّام، وهيفضلوا يبيعوا ويشتروا فينا طول العمر».

- «نجرب!».

- «ولو ما نفعتش؟ نبقى خسرنا آدم!».

- «يعني ايه؟ إنتي واثقة يعني قوي من اللي احنا بنهببه ده؟ مش خايفة نتمسك؟ ده تزوير رسمي يا هانم!! مش خايفة حتى من ربنا؟».

- «إلا دي! أنا بيني وبين ربنا عمار يا خويا، وضميري مستريح مية المية».

واصلت الحديث وهي تحكم ربط الحجاب حول رأسها:

- «أنا صليت مليون استخارة.. إحنا ما بنعملش حاجة غلط، طب ده إحنا هناخد ثواب آآآآد كده، آدم هيعيش أحسن ميت مرة من اللي كان هيشوفه في بيت بهانة وسط عشر عيال لا لاقيين هدمة ولا لقمة ولا تعليم. ده كل واحد في عيالهم الشق في رجله يخبي فيه تعبان. طب إيه رأيك إن بهانة دي ماتت لها بنت قبل كده من شوية إسهال؟».

- «مش دي حياته اللي ربنا اختارها له؟!»

- «ربنا اختار ينجيه منها! وحطنا في طريقه لحكمة! وبعدين إحنا مستحيل نتكشف! دي ناس في حياتها ما شافت المنصورة، هيوصلوا لندن؟».

انطلق إعلان الإذاعة الداخلية يقول: «النداء الأخير على الرحلة المتجهة للقاهرة»، لكن ياسر لا يتململ في جلسته على كرسي المطار الضيق، يمدّ ساقيه أمامه، يشبّك قدميه ويعقد ذراعيه على صدره، ذقنه يلامس ياقة قميصه. مدّت فاتن يدها وربتت على كتفه. قالت:

- «ربنا أكرم الكرما، وبكره تشوف.. عمره ما هيخلى بينا».

وأخيراً استوت الطائرة، استقرّت على الارتفاع المنشود. ضجيجها ثابت أبيض كحلقٍ جاف، كالقهوة الشاحبة في أكواب الاستعمال الواحد. نظرت فاتن لزوجها النائم في المقعد المجاور. سماء الأبيض المتوسط في الخارج داكنة.. موحشة، لكن داخل الطائرة نور. هنا ونس. رغم الخوف ابتسمت لانعكاسها في النافذة واستسلمت لإحساس دافئ بأن كل شيء سيكون بخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٧-

كـل شهر، في «ذلك» الوقت من الشهر، ينقلب كيان بهانة تماماً. فليومين أو ثلاثة لا نوم ولا صحيان، تحتزّ وتبرد في ذات الوقت، دمعتها تصبح أقرب من الهدمة التي تلبسها، كل شيء تمسكه يسقط وكأنها تدهن أصابعها بالزبد صباح مساء. يعلم عنها عبد العليم زوجها هذا، قد ينادي على بنت من بناته: - «روحي هاتيلي إنتي كباية الشاي يا بت.. لحسن أمك اليومين دول إيديها سايبة.. ولا فلوس الحكومة».

الليلة مثلاً أخذت تتقلّب في الفرشة بجواره حتى طردها صائحاً: - «فزي من جنبي يا ولية آني شقيان طول النهار ».

كانت ستقوم من تلقاء نفسها على كل حال. وقفت في وسط الغرفة الضيقة تنظر حولها، الجميع يغطّ في النوم، منظر كهذا خليق بأن يهوّن أي شيء على بهانة، رقّة الحال وخيبة الولد الكبير في المدرسة وعين عبده التي تكاد تعمى وسمّاوية السلفة، كله يهون ما دام الضنا بخير.. الضنا في أمان. البنت الكبيرة على المرتبة خلف الباب، وفي حضنها أختاها وبلال الصغير. الولد الأكبر ينام على الأرض بجانب الكراويتة، وزكريا كعادته.. لا ينام إلا عند الباب الخلفي، كمن يستعد للهروب. سارت لحيث ينام وفي يدها علبة الكبريت، لسبب تجهله شعرت بحاجة لتتفرس في زكريا بالذات. أوقدت ثقاباً ونظرت إليه وهو مضطجع على ظهره.. ذراعاه مقوسان تجاه وسطه كامرأة تتأهب لعركة حريم. توقفت عيناها على وجهه المليح وشعرت بانقباض. استعاذت بالله ودخلت خلف الملاءة المعلقة كستار، ستتوضأ لتصلي فيحترق الوسواس الخناس، لولا أن تذكّرت أن الصلاة غير واردة في ظرفها الحالي. توضّأت على أي حال ورددت تسابيح الطهور، يريحها ملمس ماء الوضوء على جلدها وإن لم تعقبه صلاة، يهدئ قلبها أن يلهج لسانها بالتسبيح.

تحت الحوض جوال كوساء ضخم أحضره عبده اليوم من الغيط. تقوّر بهانة الكوساء كما تفصص البازلاء وتقمّع البامية كي تبيعها جميعاً على الطريق الزراعي لنساء البندر المدللات. أخرجت الجوال وأحضرت المقورة وخطت فوق زكريا لتفتح باب الفناء الخلفي. استقبلها هواء منتصف الليل بارداً يحمل معزوفة النقيق والصرير وحفيف ورق النخل. طرأ تغير على هواء العزبة منذ عزاء الشهر الماضي، عزاء آدم حفيد العمدة حجازي. باتت النَفَس ثقيلاً، عصياً على الاستنشاق.

لن تجلس في الزاوية التي يسميها عبده «الدروة» رغم أن سقفها الخوص لا يداري سوى حفنة مقاعد متكسرة تحت شجرة تين. فقد نظفتها اليوم أخيراً بعد أسابيع من المماطلة (لا يزال ذراعاها يؤلمانها من التزعيف ورش الماء).

جرّت الجوال على الأرض وجلست في زاوية الفناء على مقربة من حمارتهم النائمة.

لكن حبات الكوساء اليوم مراوغة، ماكرة، لا تطاوع بهانة. تناور كسمكة بساريا خرجت من النيل للتو. قشرتها اللزجة أشبه ببرو الصابون. تغرز بهانة المقورة في إحداها فتفلفص وتنثقب فوراً، وكأن تلك التي تمسك بالكوساء عذراء في التقوير، وكأن أطنان الكوساء التي قوّرتها بهانة منذ كانت «مقروضة» في التاسعة مجرد تهيؤات. كلما أمسكت بحبة تنزلق فتُثقب فتلقيها جانباً. غمغمت: «ملعون أبو الكوسة على أبو أم العادة». انتقت حبة كبيرة بعض الشيء ليسهل التحكم فيها، لكن المقورة هذه المرة لم تكتف بثقب الكوساء - بل طعنت يد بهانة.

لثانية طويلة بدا أنه لم يحدث شيء، فلا نزيف ولا وجع، ثم هجم الاثنان بغتة: انفجرت بركة حمراء صغيرة في صحراء الكف. واشتعل الألم من سطح الجلد حتى العمق السحيق. شمّت الحمارة الدم فتململت وشخرت في هدوء. لكن صوتاً آخر هو ما أدهش بهانة، زمجرة سيارة آتية من بعيد وسط السكون. أرادت أن تنهض لترى، لكن يدها راحت تنبض بجنون. الزمجرة تعلو، تقترب حثيثاً بينما بهانة تحلّ الطرحة من حول رقبتها وتلفّها حول الجرح ثم تعضُّ طرفاً بأسنانها وتشد الآخر بيدها السليمة. بمجرد أن انتهت بهانة أدركت الزمجرة البيت وماتت أمامه. وثبت واقفة ونظرت عبر السور فإذا بمؤخرة سيارة تقف بكل تأكيد -بكل تبجح- أمام الباب، بياضها يتحدى الظلام. في خطوتين كانت بهانة بالداخل تزغد زوجها بكل ما أوتيت من قوة: - «قوم يا عبده.. قوم يا راجل شوف مين اللي جايلنا في عربية الساعة دي».

السيارة تقلّ زوجين أنيقين من مطار القاهرة الدولي رأساً لعزبة «قرموط» دون توقف بناء على تعليمات الست. سمعها السائق تهمس لزوجها شيئاً من قبيل: «لازم نخش عليهم في حموتها.. حكاية زي دي ما تستناش للصبح!»، يجلس الاثنان في السيارة الآن. يطالعان البيت ولا يجرؤان على النزول. اعتراهما نوع من الشلل الانفعالي كالذي أعدّ ياسر ورقة بحثية عنه قبل أسبوعين اثنين. استحضرت فاتن كل ما مرّت به في الأشهر الأخيرة منذ تلقت تلك المكالمة المشؤومة من المستشفى في بريطانيا. يجب أن يبدو الأمر الآن مفاجأة مروعة، خبراً مدوياً لم تمرّ عليه ساعات. فتح الباب رجل عاري الصدر، ونادى: - «مين اللي هناك؟».

ظلّ عبد العليم واقفاً في فتحة الباب ينتظر الرد، لا يرتدي إلا سروالاً يستره من وسطه حتى ركبتيه، يلمع تحت القمر كتمثال من طين. لكن ياسر وفاتن لا يردّان، يلوذان بالصمت وبسيارة الأجرة. في العتمة من خلفه ظهر وجه بهانة شاحباً، كل عين من عينيها في اتساع فنجان.

وأخيراً نزل الراكبان. هتف ياسر:

- «أنا الدكتور ياسر البحيري».

قالها وسكت، فأكملت زوجته:

- «سلامو عليكو. أنا الدكتورة فاتن.. بنت العمدة حجازي. وده جوزي الدكتور ياسر».

تقدمت بهانة من وراء زوجها الذي اختفى في الداخل. ارتفع حاجباها ذهولاً وهي تقول: - «ست فاتن؟».

تبادل الثلاثة النظرات، يبحثون جميعاً عن شيء يقال. في مكان ما عوى ذئب، أو لعله كلب. ثم اشتغل فم بهانة على البرنامج الأوتوماتيكي: - «خطوة عزيزة.. اتفضلوا.. أهلاً وسهلاً».

ظهر عبد العليم وقد رمى على جسمه جلباباً داكناً:

- «اتفضل يا دكتور.. خطوة عزيزة.. اتفضلوا اتفضلوا».

ردّ ياسر:

- «اعذرونا.. إحنا جايين في وقت متأخر.. بس الموضوع ما يستناش».

أفسح عبد العليم وزوجته الطريق للضيفين كي يدخلا البيت، لكن فاتن قالت: - «مش عايزين نقلق منام الولاد. فيه مكان فاضي شوية نتكلم براحتنا؟».

نظرت حولها وأضافت بتشكك:

- «إن شالله نجيب كرسيين ونقعد هنا قصاد البيت».

طالعت بهانة زوجها الذي قال:

- «خير اللهم اجعله خير!.. نقعد في الدروة.. اتفضلوا من هنا».

لفّ حول البيت ووراءه زوجته والضيفان. دخلوا الفناء الخلفي من باب ضيق يقف وراءه حمار. اتخذوا مقاعدهم على كراسي خشب متقلقلة بلا مساند. فوق رؤوسهم مظلة خوص يتسرب خلال شقوقها ضوء القمر. قال مضيفهما: - «خطوة عزيزة! نعمل شاي؟».

وقالت زوجته:

- «أنا لو أعرف إنكو عند الست أسمهان كنا احنا اللي جينا لحد عندكو نعزي. أمال إيه.. إحنا بنعرف الأصول».

قاطعتها فاتن:

- «إحنا جينا من المطار على هنا على طول. ده حتى ماما لسه ما تعرفش إننا في مصر».

- «الله! هو فيه إيه يا ست من غير شر؟».

نظرت فاتن لزوجها ثم لمستمعيْها:

- «إحنا هنخش في الموضوع على طول. بقى ابننا آدم اللي اتوفى الشهر اللي فات في حادثة عربية».

- «ألف رحمة ونور عليه».

- «الله يرحمه.. الصدمة كانت كبيرة قوي، والصدمة الأكبر إن آدم.. آدم

طلع مش ابننا. الدكاترة بيقولوا كده. آدم اتلخبط ساعة الولادة مع ابننا الحقيقي. والتحاليل كلها بتقول كده. إحنا من ساعة ما مات واحنا في تحاليل وورق و... وتشريح! وأول ما ثبت إن الكلام ده مؤكد جينا على ملا وشنا في أول طيارة! وريهم يا دكتور ياسر التحاليل».

أخرج ياسر من جيبه مظروفاً كبيراً مطوياً. فتحه وأخرج ورقة قرّبها لوجه عبد العليم: - «دي شهادة الوفاة.. وده تقرير الطب الشرعي.. معلش الورق كله بالإنجليزي طبعاً عشان بلاد بره، بس إحنا هنترجمه ويبقى معاكو النسختين.. الإنجليزي والعربي».

أعاد الورق مكانه وأخرج غيره:

- «وده تحليل فصيلة الدم.. وده تحليل الحامض النووي».

في كل مرة يتفحص عبد العليم الورقة المعروضة عليه بعينه السليمة فلا يرى إلا كلاماً أفرنجياً مكدساً. أضاف ياسر وهو يعيد آخر الأوراق للمظروف: - «الورق ده كله بيقول ان آدم مش ابننا الحقيقي، ما ينفعش يكون لا ابني ولا ابن الدكتورة».

قالت فاتن:

- «انتو طبعاً بتسألوا انتو إيه دخلكو بالموضوع، وليه إحنا جايين من المطار عليكو في نص الليل كده. الحكاية وما فيها إننا اتصلنا بالدكاترة معارفنا اللي في وزارة الصحة واللي في الوحدة الصحية هنا في ميت أبو النور. وطلعوا الدفاتر.. وعرفنا إن ليلة ولادتي كان في حالة ولادة واحدة بس غيري.. وكانت في نفس الوقت بالساعة ويمكن بالدقيقة. الحالة دي كانت انتي يا بهانة.»

- «يعني إيه لا مؤاخذة يا ست؟! قصدك إيه؟!».

في هذه العتمة تستحيل قراءة الوجوه.

- «قصدي إن ولادنا اتلخبطوا مع بعض بالغلط. وإن اللي مات ده كان ابنكو.. الله يرحمه.. هو كان ابني برضه، وهافضل طول العمر حزنانة عليه. بس إحنا ابننا عايش.. وعندكو هنا اهو في البيت».

فلتت الكلمة من فم عبد العليم في تلقائية:

- «زكريا؟!».

صرخت فيه زوجته بحدة:

- «عبده!».

ساد صمت لبضع ثوانٍ. شخرت الحمارة وتقدمت خطوتين بلا هدف ثم عادت أدراجها، مكتفية بذلك الاحتجاج على قلة الراحة، ففي هكذا ساعة متأخرة من الليل ليس بها جهد للنهيق أو الرفس. تحدث ياسر: - «احنا شفنا اتنين من ولادكو قبل كده.. المرة اللي فاتت لما كنا في بيت الحاجّة. أعتقد زكريا ده الكبير مش كده؟ عنده ست سنين؟ هو فعلاً فيه شبه كبير مني ومن الدكتورة. بس طبعاً لازم تحاليل».

- «بصي يا بهانة، وانت يا عم عبده. إحنا مش طالبين غير إننا نحلل للولد. وكمان نحلل لبقية أفراد الأسرة ونعرف آدم الله يرحمه كان ابنكو ولا لأ. بس إحنا مبدئياً متأكدين إنه ابنكم لأن الشبه واضح. حتى شوفوا!».

أخرجت هاتفها المحمول ووضعته أمام بهانة وزوجها. انكفأ الوجهان على الهاتف وعكسا ضوءه، كوكبان ضائعان في فضاء أسود.

- «إنتو عاوزين مننا إيه يا ست.. أعوذ بالله.. ده ابننا ونايم في حضننا.. جايين الساعة دي عاوزين إيه؟».

- «إحنا مش عايزين إلا إن الحقيقة تبان.. نحلل لزكريا ونشوف، لو مش ابننا يبقى ما فيش أي حاجة. أما لو طلع ابننا بقى.. أظن خلط الأنساب ما يرضيش ربنا».

تدخل ياسر بحزم:

- «إحنا الليلة دي هنسيب الولد عندكو، وهنعدي من الفجرية ناخده ونعمل التحاليل في أكبر مستشفى في المنصورة. أنا اتصلت بوزير الصحة وهو موصي مدير المستشفى يستناني من النجمة. وفيه مندوب من سفارة بريطانيا هيكون منتظرني برضه، لأن الولد ده يُعتبر مواطن بريطاني».

- «الحق يا عبده! بيقولك هياخدوا الواد من الفجرية.. وبيهددنا بالوزير والسفير! إيه؟ هي سايبة؟؟! البلد مافيهاش حكومة؟! ولا يعني اكمننا غلابة؟»!

- «بس يا ولية وطي حسك هتصحي العيال.. بيقولك هياخدوا الواد يحللوله بس. بس لا مؤاخذة بقى.. إحنا ما بنسيبش ابننا يروح في حتة لوحده، ولازمن نيجي معاه ورجلنا على رجله».

رددت بهانة:

- «أيوه طبعاً رجلنا على رجله.. أمال إيه!».

نفخ ياسر ونظر يميناً وشمالاً كأنه يلتمس من يبيعه صبراً. قالت فاتن بشبه ابتسامة: - «هو إحنا قلنا حاجة؟ أكيد لازمن تيجوا، وبالمرة نعمل لكم التحاليل

والدكتور في المستشفى يفهمنا كلياتنا معناة الكلام.. وعلى عينك يا تاجر!».

أخرجت من حقيبتها منديلاً ومسحت دمعة غير موجودة. أكملت بصوت خافت: - «آني بقالي شهر ما دقتش طعم النوم.. مش كفاية إن ابننا الحيلة مات.. لا، وتطلعلنا مصيبة زي دي! وفي الأول والآخر يا عم عبده يا خويا مافيش حاجة هتحصل إلا برضاكو.. وقبل كل شيء طبعاً رضا ربنا».

كفّ بهانة ساخن كجمرة. يخفق كقلب ثانٍ غاضب. دمها ملأ الطرحة المعقودة حوله وأخذ يقطر في حجرها.

قام ياسر قائلاً:

- «طيب، قومي بينا يا دكتورة نريح الكام ساعة دول لغاية الصبح».

وصّل عبد العليم وزوجته ضيفيهما حتى باب الفناء. قبل أن تخرج فاتن استدارت ونظرت لهما بحزن. وضعت يدها على كتف بهانة وهمست: - «البقية في حياتكم. ربنا يصبركم».

عندما ابتلع الظلام سيارة الأجرة القاهرية تأمل عبده زوجته، صاحت: - «إحنا لازمن...»

لكنه هز رأسه وابتسم دونما بهجة وقال:

- «لازمن إيه يا بنت الناس؟ مافيش حاجة لازمن البني آدم مننا يعملها غير إنه يموت! اما نشوف آخرتك معانا إيه يا دنيا!».

تركها وذهب. حاولت التنفس لكن الهواء ثقيل، عصيٌّ على الاستنشاق. ظلت واقفة عند الباب تحتضن كفها الجريح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-١٨-

هـذا الرجل.. هذا الرجل الوجيه العابس الجالس جاري. يريدني أن أناديه «بابا» كأولاد البندر. أخطئ فأقول «آبا» فيقطب جبينه ويلوح بأصبعه. على أي حال هو ليس أبي.. أبي هناك في عزبة قرموط. في ضوء هذا، هل تفرق «آبا» عن «بابا»؟ ونحن في المطار صرخت فيه بأعلى صوتي: «بابا بابا!! بابا ده إيه يا بيه انت؟ آني اسمي زكريا عبدالعليم عبدالحميد جاد!» لم أخشَ أن يضربني.. فهيئته لا تدل على أنه سيعفّر يديه، على الأقل ليس أمام الناس.

الآن نحن في الطائرة. بمجرد أن أركب أردد بأعلى صوتي: «ووش ووش ووووووووش». يزجرني الـ«بابا» بكلام لا أفهم نصفه فأسكت. لكن الطائرة مملة.. أدفع المقعد للوراء ثم أعيده للأمام، للوراء فالأمام فالوراء فالأمام. أفتح النافذة فلا أرى جديداً، ساعة ونصف من السماء الزرقاء. أعود فأصيح «ووووش ووووووش». يعود فيقطب جبينه ويرطن كأولاد البندر. أفهم أنه متضايق لكنني مللت!

أشم رائحة طعام. أنادي المرأة ذات القبعة المضحكة: «أبلة! يا أبلة! عاوز آكل!» تنظر لي في ذهول بينما ينهرني البابا بشدة حتى أخاف حقاً أن يفعلها هذه المرة ويضربني. لكنني أقرأ في عينيه أنه لن يفعلها، ليس أمام الناس. أصيح: «إيه؟؟ جعان!». تحدق المرأة في البابا وترفع حاجبيها وتقول: «هو ده مع حضرتك؟!». يصبّ جام غضبه عليّ بتهديدات لا أفهم نصفها بينما تذهب هي ثم تعود بحاجبين منخفضين وابتسامة واسعة وصينية أكل تضعها أمامي وهي تنظر له هو. تقول: «اتفضل يا حبيبي». ينسى غضبه فوراً ويبتسم لها. أهمس: «الله يسهل لك يا عم!» وأهجم على الصينية.

بلاد بره فاقعة الألوان. سجادة مطارهم حمراء جداً. شعرهم أصفر جداً وعيونهم زرقاء جداً. بعد مطارهم نخرج للشارع ويتجمّد أنفي ويكاد يسقط على الأسفلت. نركب سيارة أخرى. أجلس فيها وأعدّ على أصابعي: في يوم واحد ركبت: ١- سيارة أجرة (في مصر).

٢- طائرة.

٣- سيارة ملاكي (هنا).

ثلاث ركوبات في يوم واحد! أعدّ على إصبع رابع البيجو الذي أخذني وأمي للمنصورة وأنا صغير (كما تروي هي لي). أربع ركوبات وأنا لم أتمّ السابعة! لن أحسب الحمارة؛ لأن هذا ليس محسوباً. أربع ركوبات رقم كبير! أخي الأكبر لم يركب سوى واحدة فقط.. وأختي الكبرى لم تركب ولا واحدة للآن. سيموتان غيظاً!

خارج السيارة المطر ينهمر كستار كثيف يحجب كل شيء. اللون الوحيد في الشوارع هو الأحمر الذي يشتعل في مؤخرة السيارات. أطلق بعض التعليقات المناسبة لظرف كهذا: - «النطرة جامدة آوا آوا يا آ.. يا بابا!»

- «يا بوووووي.. الشجر بيسرسب... زي ما يكون بيشُحّ!».

- «يا نطرة رخي رخي.. على قرعة بنت أختي».

لكن تعليقاتي تقابل بالزجر والنفخ والإصبع إياه. في النهاية نصل لحل وسط: يفتح هو المذياع ويتظاهر بأنني غير موجود مقابل أن أتوقف أنا عن الكلام وأكتفي كل حين وآخر بـ«وووووووش وووووووووش وووووووووووش».

نمت وصحوت على يد تهزني، عصرت مخي وتذكرت أنه الرجل نفسه... قال: - «يلا يا زاك، وصلنا البيت».

فهمت طبعاً أنه يحدثني، لكن غرابة الاسم شككتني للحظة. فمعلوم أن زكريا يقال له «زيزو» أو «زكاروتّه». المطر توقف والشارع ليس به نقطة ماء، الماء فقط على ورق الشجر الأخضر جداً.

نمشي خطوات ثم نصل لبيت ينفتح بابه قبل أن نطرق. بالداخل امرأة وولد. ألقي عليهما نظرة عابرة ثم أنظر للأرض. تحتضنني السيدة وتقول: - «زكريا! حمد الله على السلامة.. نورت بيتك ومطرحك. أنا ماما».

ماما؟ ماما؟؟ على الأقل هذه تناديني باسمي، وتتحدث كالناس. تكمل: - «ده أخوك.. آدم».

تقرّبه بيدها الأخرى ونقف في مواجهة بعضنا. أنظر إليه وأشعر بأنني قابلته من قبل. أين؟ أين؟ ثم أنظر إليها وألاحظ أن عينيها ملوّنتان مثلي. أطالعه وأطالعها بالتبادل، ثم أستدير فإذا بالرجل في ظهري ويجتاحني ذعر شامل. من هؤلاء؟ وماذا يريدون؟ أحاول أن أتذكر حرفاً واحداً من الذي قالته أمي عندما أقعدتني على الكراويتة وطردت الباقين وجلست جانبي قائلة إن لديها «كلمتين مهمين»، لكن كلامها كله تبخّر الآن! بالأمانة لم أكن أنصت بتركيز. فقد كنت مشغولاً بتتبع جريان دموعها في أخاديد لم ألحظها من قبل في خدها.

رائحة طبيخ تزيد من الدوار في رأسي. تقول المرأة:

- «إنت أكيد واقع من الجوع. يلّا السفرة جاهزة. بس تعالى أوريك الحمام عشان تغسل إيديك».

أغسل يدي بمياه جارية من صنبور، آكل أنا والمرأة والولد على طاولة كبيرة كالتي رأيتها في بيت ست أسمهان، بينما «البابا» يطالعنا من باب الغرفة

ويداه في جيبيه، يرفض مشاركتنا ويشير إليّ ويقول للمرأة كلاماً لا أفهمه؛ ثلاثة أرباعه بالأفرنجي والباقي فيه رائحة العربي. ترد عليه «معلش.. بكره يتعلم.. الصبر يا خويا». صوتها يذكّرني بأمي، وطبيخها كذلك، الفارق أن هذه الكمية قد تطبخها أمي على مدار شهر (محشي ورقاق وزفر وصينية بطاطس).

بانتهاء موقعة الأكل أتثاءب وأتثاءب. رأسي جوال رمل. تأخذني المرأة ونصعد سلماً ومعنا الولد. ندخل غرفة بسريرين. تقول: «ده سريرك يا زكريا، وده سرير أخوك آدم. وأنا وبابا في الأوضة اللي جنبكو بالضبط». تُلبسني لباس نوم عليه بلالين وقطط. أجلس في فرشتي وأشعر أني متعب جداً جداً. أستطيع أن أنام أسبوعاً كاملاً. تُقبّل الولد ثم تأتيني فتُقبّل شعري وتقول: - «عاوز حاجة يا زكريا؟».

أرد فورا:

- «آني عاوز أنام في بيت أبويا!».

تمطر عيناي دموعاً ساخنة هكذا من تلقاء نفسها. إنني أبكي كـ«بلال» الذي لم يفقس من البيضة بعدُ، يوخزني شعور بالخزي لكن وخزة الخوف في قعر بطني أقوى.

تمسح وجهي بكفّ ليس خشناً ولا مألوفاً ككف أمي، وتقول كلاماً كثيراً لا أسمعه من فرط عويلي. ثم أسمعها تسأل: - «إنت مش تعبان؟».

هي نقطة في محلها بالأمانة! فعيناي تنغلقان وحدهما. أجيب: - «آني هانام هناهو شوية.. وبعدين هاقوم أكمل نوم في بيت أبويا!».

عندما تذهب وتترك الباب موارباً أنظر للولد فإذا به يحملق فيّ. بين النوم واليقظة يختلط عليّ الأمر. من هذا الراقد قبالي؟ آدم؟ أم بلال؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٩-

السماء لم تأتِ اليوم. تحجبها بطانية بلون الحديد، بطانية واسعة بما يكفي لتستر كل سنتيمتر من الزرقة، كثيفة بما يكفي لتطمس أي شعاع ضوء.

يشارك اليوم في الرحلة إلى المدرسة زوج سيقان جديد: ساقا زكريا الحذِرَتان على غير العادة، البطيئتان على غير العادة، المكسوتان لأول مرة ببنطال المدرسة الرمادي ومن تحته الحذاء الأسود، ساقا غريبٍ يظل أعمى وإن كان بصيراً. إلى جانبهما تخطو فاتن بساقين متدثرتين ببوت من الجلد بني اللون يرتفع حتى الركبة. خطوة فيها عزم وخطوة فيها وَجَل.

وعلى الجانب الآخر لفاتن ساقان أخريان. هاتان أيضاً مكسوتان ببنطال مدرسي ومن تحته حذاء أسود، لكن آدم هذا الصباح وعاء حماس ممزوج بالزهو. لأول مرة سيكون له في المدرسة أخ، قريب، صديق مضمون، رفيق لعب مؤكد. يودّ آدم هذا الصباح بالذات لو قطع الطريق للمدرسة طيراناً لا سيراً، لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الوثب أو الكلام. يعدّد كل أنواع الزهور في حدائق الجيران: «بانسي! جيرانيوم! داليا! فورجت-مي-نوت! بيزي-ليزي! لافندر!»، يتوقف فقط ليلتقط أنفاسه، يمطر أمه وأخاه بالأسئلة: «مامي! زاك هيبقى في فصلي؟ هيقعد جنبي؟ زاك! هتلعب معايا في البريك؟ نلعب هايد آند سيك ولا تاج؟!»

لكن زكريا يعتصم بالصمت هذا الصباح. يتجاهل ما يقوله آدم (وهو لم يفهم منه شيئاً على أي حال) وينشغل فقط بطقطقة الحصى تحت خطوته وغرابة التغريد فوق رأسه ونقاء الهواء الذي يدخل أنفه. الواقع أن زكريا يعتصم بالصمت منذ مدة، فبعد أن أمضى أسبوعه الأول في لندن صاخباً متسائلاً باكياً شاكياً أدرك حقيقتين جوهريتين أفضيتا لما هو عليه الآن من وجوم:

الحقيقة «ألف» أنه لن يرجع إلى عزبة قرموط. أبداً. أي نعم هناك وعود من الست الدكتورة (التعليمات الآن أن يدعوها ماما أو مامي) بأنهم سيزورون العزبة في الإجازات. لكن حياته الآن ها هنا، في هذا البيت، في كوكب الصقيع هذا.

والحقيقة «باء» أن كل ما ينطقه ويفعله حتماً سيثير الاستغراب كما تثير (ولا الضالين) من إمام العزبة (آمين) من المصلين. فلا يكاد زكريا يفتح فمه حتى يطير حاجبا ياسر لفوق، ويهبط فك آدم لتحت، ويدقّ كفّ فاتن رأسَها. لم يكن من الصعب عليه أن يفهم السبب: فعربيته تختلف عن عربيتهم، ثم إنه لا يلبس ثيابهم أو يلعب ألعابهم أو يأكل مثلهم، ولم يستخدم أبداً هواتفهم أو

يشاهد تلفزيوناتهم أو ينام في أسرّتهم، ناهيك عن أنه لا يفكّ الخط ولا يستخدم الحمّام.

في ضوء حقيقتين في سطوع الألف والباء آثر زكريا الانسحاب داخل رأسه، التقوقع على نفسه، البقاء تحت السطح، الانحناء أمام عاصفة داهمته من حيث لا يحتسب.

توقفت فاتن عند باب المدرسة، تقبض على ابنٍ في كل يد. جزيرة سكون وسط موجات متلاطمة من التلاميذ والأهالي. أخذت نفساً عميقاً وتمتمت «يا لطيف» ثلاثاً وثلاثين مرة. جذبها آدم من معطفها وقال: «فيه إيه يا مامي؟! مستنية إيه!» لكنها لم تجب حتى انتهت المرات الثلاثة والثلاثون. رفعت ذقنها لأعلى وسارت قدماً. على باب الفصل رأتهم المدرّسة واقفين في زحام الأطفال والأمهات، ابتسمت وجاءتهم.

- «صباح الخير! إنت أكيد زاك. أهلاً بك. أنا مس «ناپ» مدرستك.. متأكدة أنك ستكون متفوقاً كآدم».

مدّت يدها وصافحت زكريا ثم التفتت لفاتن.

- «أي شيء تودين لفت نظرنا له مسز بحيري؟».

- «زكريا ضعيف في الإنجليزي».

- «لا تقلقي. أعددنا لزاك برنامجاً خاصاً.. جرعة إنجليزي مكثفة.. في خلال شهرين ستنتهي تلك المشكلة. وحتى ذلك الحين آدم أكيد سيساعدني كي أتواصل مع شقيقه.. صحيح يا آدم؟».

طالعهما آدم بوجه لم تره فاتن بهذه السعادة منذ وقت طويل، ثم دخل الفصل مع المدرسة، بينما ظل زكريا ممسكاً بيد أمه، يطالعها بوجه لم تره بهذا الامتقاع منذ وقت طويل -منذ ليلة وصوله تحديداً- شيئاً فشيئاً خفّت الضوضاء وانتظم الأطفال في الفصول. جثت بجانبه وقالت:

- «زكريا يا حبيبي.. شايف المدرسة دي؟ إنت هتبقى أحسن واحد فيها. إنت وآدم. هيبقى كل دول صحابك. أنا عارفة إنك خايف بس لازم تصدق ماما. اسمع كلام المس وانت هتبقى كويس. وخليك مع أخوك، لو عايز أي حاجة اطلبها منه وهو هيديك عينيه. وأنا هاستناك بره في الحوش.. مش هاتنقل من مكاني يا زيزو لغاية معاد المرواح».

أرادت تقبيله فطأطأ رأسه وانتهى المطاف بالقبلة في شعره. نظر إليها بعينين مستسلمتين، قطّ خائف. أرادت أن تقول له شيئاً آخر لتخفف عنه، لكنه تنهّد ودخل الفصل.

تنهّدت هي الأخرى ونهضت واقفة، انتابها شعور بأن أحداً ما يراقبها. التفتت فإذا بزينة تقف خلفها ممسكة بصغيرتها مايا وتطالعها بذهول. بادرتها:

- «من هذا يا فاتن؟!».

جلستا على الكنبة الخشب في أول الفناء وراحت مايا تلعب. بدأت فاتن حكايةً قررت سلفاً أن تكون قصيرة:

- «زينة.. أول مرة أتمنى أن تفهمي العربية! زاك ابني. أنا في الحقيقة أنجبت توأمين، لكن اضطررت لترك أحدهما مع ماما في مصر. وكنت.. أشعر بالذنب لدرجة الجنون.. لم أقل لكِ ولا لأي شخص».

- «كنت أشعر أنك تخفين شيئاً!.. بالذات في الفترة الأخيرة! لكن لماذا تترك أسرة أحد ابنيها وتسافر؟!».

غشت النداوة عيني فاتن وهي تجيب:

- «ياسر صمّم. قال ظروفنا المادية صعبة.. وماما أيّدته. وتوسلت لي أن أترك ولداً منهما يملأ عليها البيت وأنا.. أنا اخترت أخذ آدم؛ لأنه كان المولود الأضعف.. كان قراراً صعباً يا زينة، والآن.. الآن ابني لا يعرفني، لا يرضى حتى أن يناديني ماما».

أجهشت فاتن بالبكاء واحتضنتها زينة. حاولت أن تقنعها بالتوجّه للمقهى القريب لكن فاتن أصرّت على البقاء في المدرسة طيلة اليوم الدراسي كما وعدت زكريا.

تركتها زينة لتودع مايا في رعاية أمها في البيت. و في غضون النصف ساعة عادت تحمل ترموس قهوة تفوح منه رائحة الكافايين، فوجدت فاتن في مكانها لم تبرحه. أخرجت من حقيبتها زوجي قفازات، أعطت فاتن واحداً وارتدت الآخر. جلستا تحتسيان القهوة وتبحثان الأمر على مدى الساعات المتبقية من اليوم الدراسي. حرصت زينة أن تكون نبرتها متفائلة وأن تخفف عن صديقتها قدر الإمكان، أكدت لها أن الاطفال يتأقلمون بسرعة مع محيطهم الجديد، وأن زكريا سيألف أسرته شيئاً فشيئاً وسيثرثر بالإنجليزية في غضون أسابيع. ذكّرتها بضرورة ألا تهمل آدم أيضاً وسط التغيرات الكبرى التي تمر بها أسرتهم.

وأخيراً دق الجرس وتدفق الأطفال في طوابير ملونين الفناء بستراتهم الحمراء. خرجت مس ناپ تمسك بزكريا في يدها، كان شاحباً ينظر يمنة ويسرة، لكن الاطمئنان بدا عليه لما رأى فاتن. سلّمته المدرسة لأمه وهي تقول:

- «إنجاز كبير اليوم! يجب أن تكوني فخورة بزاك مامي. أصعب يوم عدّى.. والقادم أكيد أسهل».

لحظتها أمطرت السماء قطرات كبيرة ما لبثت أن تكاثرت إلى أن صارت كالدُّش، عاد الخوف لعيني زكريا لثوانٍ لكنه لما سمع الأطفال يقهقهون ورأى الكبار يركضون للاحتماء بالشجر نظر لأمه وابتسم ابتسامة صغيرة هي الأولى التي تراها فاتن على وجهه على الإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٠-

بعد ست سنوات،،،

ليـالي الصيف في «ميت أبو النور» أطول من اللازم، وإذا كان هذا ليس مريعاً بما يكفي فهي أيضاً أسعد من اللازم. كل شيء في ليالي الصيف -وأيامه- ينطق بالفرحة: عيال القرية المنتشون بالإجازة، صغار الماعز المزهوون بمغافلة السكين، سنابل الذهب تحت الشمس، شذا ياسمينة الشكمة، طفرة النمو في شجرة المانجو، تفتح أزهار الكرز، أوركسترا صراصير الحقول.. إلخ إلخ إلخ..

لا يجوز أن يكون الكون منشرحاً هكذا بينما الهم يركب الحاجّة أسمهان. من فرط وحدتها أرسلت في طلب العمة رضا ذات أصيل، تلك العجوز الصعيدية التي تنظم الشِّعر. جاءتها العمة ببؤجتها الغامضة، قرفصت على أرض الشكمة بقرطيها الذهب وعنقها المكرمش وذقنها الموشوم وانطلقت تشدو. ولما انتصف الليل تثاءبت وودّت النهوض، لكن الحاجّة استبقتها، فأسمعتها العمة قصيدة ليست من ثمار إبداعها، قصيدة تقول: «طب ده انا ليّا ستّ سنين.. مزروعة في ضهر الباب.. لم طلّوا علينا أحبة ولا أغراب.. إذا جاك الموت يا وليدي.. موت على طول.. اللي اتخطفوا فضلوا أحباب.. صاحيين في القلب.. كإن ماحدش غاب».

بعد ساعات من انصرافها كانت أسمهان تجلس في سريرها وسط الظلام، تطالع ساعة الحائط. بعد دقائق سيؤذَّن للفجر، أي إنها الثانية صباحاً في لندن. أمسكت هاتفها المحمول ووضعته على أذنها دون أن تتصل بأحد. همست: «إنتي صاحية يا بنتي.. إزيك يا ضنايا؟ وازي ولادك.. إزيهم الاتنين.. وجوزك.. مش هتيجوا في الصيف؟ عاوزة أشوفك يا بنتي.. أيوه ما اني فاهمة الظروف.. آني؟ لا آني ما قدرش آجي يا فاتن.. يا بنتي آني المرض اتكوّم علي.. دول ست سنين من ساعة ما شفتك.. ست سنين ولادك كبروا فيهم ربنا يحرسهم.. وأمك كمان.. عجّزت فيهم ييجي ميت سنة.. خايفة اموت من غير ما اكحل عيوني بيكي وبولادك.. هتيجي لوحدك؟ وعدتيني كتير بيها يا بنتي! الصبح شفت البت بهانة.. اتمأتت وخست النص، وشها بقى قد اللمونة.. بيقولوا في البلد ما بتدوقش الزاد من يوم ما ابنها ما راح إلا بعلقة من جوزها.. ألا.. ألا آني هاقول إيه لما أقابل وجه كريم يا بنتي؟ فكريني تاني إحنا عملنا اللي عملناه ليه.. أصلي خايفة ما القاش ردّ لما يقفلوا عليا باب قبري ويروحوا ويفوتوني لوحدي!».

تريح أسمهان تلك المحادثات الوهمية، وضعت الهاتف على المنضدة واستلقت على ظهرها وحملقت في السقف وراحت تتلمس في شقوقه وجه

فاتن، كلما عصرت مخها لتتذكر ابنتها كما رأتها آخر مرة تُخفق.. يأتيها وجه فاتن صغيرةً بضفيرتين. حاولت استحضار وجه آدم ففشلت، وجه زكريا ففشلت أيضاً، كل مرة تعيد المحاولة لا يرتسم في نقوش السقف إلا وجه العمة رضا، تكاد تسمع الآن نشيجها وهي تغني: «طب ده انا ليا ست سنين مزروعة في ضهر الباب، لم طلوا علينا أحبة ولا أغراب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢١-

بعـد ليلة رديئة كهذه يا آدم يصبح جرس المنبه طوق نجاة. تسللتُ من فراشي كيلا أقلق أباك. أعددتُ فنجان قهوة واحتضنتُه، أستكين إلى دفئه وألتمس عنده شيئاً من الرحمة. حادثت تيتة قبل أن آخذ أول رشفة. طوال الليل تعبث برأسي أحلام أقلقتني. لكن قلقي زاد، بدت لي جدتك مشوشة، لا تدري إن كانت تحدثني حقيقة أم لا.. قالت إنها حلمت بمكالمتنا تلك بالحرف سابقاً. صوت تيتة أسمهان يا آدم متعب الآن دائماً، جلّ حديثها عن الأسقام رغم أنها في بداية الخمسينات بعدُ. وباقي حديثها إلحاح أن نأتي، وكيف لأمثالنا أن يدخلوا مصر آمنين يا آدم؟ عندما يحتدم بيننا السجال تقول جدتك بنفاد صبر كمن يوضح أمراً ليس بحاجة إلى إيضاح: «الترحال مش ليا يا بنتي، ولا آني للترحال»، وكأن هذا مكتوب في سِفرٍ ما خُلِقَ قبل أن نُخلق نحن، سِفرُ المباح واللامباح لكل واحد وواحدة من بني البشر. ثم هناك ما هو أخطر: تلك الإشارات الملغّمة لبهانة، وهُزال بهانة، وفجعة بهانة. وكيف يفترض يا آدم أن تجيب ابنة إن سألتها أمها: «أقول إيه لما يقفلوا عليا قبري؟».

صعدتُ لأوقظكما فإذا بكما واقفان أمام المرآة كلاعبي كمال الأجسام بلا قمصان. أتعرف يا آدم أنني في كل مرة أراكما أندهش؟ الصغيران اللذان لم يعودا صغيرين. الطفل يتحوّل إلى رجل وعين أمه تشهد وقلبها يظل يُنكر. لما رآني أخوك هتف: «ماما! الكوتش في المدرسة بيقول عضلاتي هتكبر لو رحت الچيم كل يوم.. بيقول أنا عندي بوتنشال عالي!». ثم التفت إليك وهمس (ومنذ متى يحسن زكريا الهمس؟): «هو يعني إيه بوتنشال بالعربي؟». ضحكتُ رغماً عني وأنت ترفع حاجبيك وكتفيك في آن واحد. قلتُ: «ما تقلقوش كده انتو الاتنين! بوتنشال مش كلمة عويصة أوي يعني على ماما!» دعوتَكَ أن تريَنا عضلاتك أنت الآخر كي ألتقط لك صورة. شددت ساعديك يا آدم قدر استطاعتك لكنك أخفضتهما فوراً وابتسمتَ معتذراً وقلت: «مش مهم يا مامي.. مافيش حاجة تصوّريها». تدفقت الدماء لوجه أخيك، حرجاً من تواضعك، من لاتنافسيتك. قال بحماس:

- «آدم مكسوف ييجي معايا الچيم، بس أنا هاعلمه في البيت كل اللي هاتعلمه من الكوتش!».

من تركتكما عندئذ ونزلت تعد الإفطار كانت امرأة أسعد كثيراً من تلك التي صعدت؛ إذا كانت هناك حاجة لدليل واحد، واحد لا غير، على أنني لم أغضب الله عندما فعلتُ ما فعلت قبل ست سنوات فالحب بينكما هو أبلغ دليل. وهذا ما يجب أن تقوله جدتك.

لاحقاً في ذات الصباح اتصلتُ بالعيادة وذكرتهم أنني لن آتي للعمل اليوم.

فعلى أجندتي يوم رياضي يُدعى أولياء الأمور لحضوره. أتتني الضجة قبل أن أدخل المدرسة. وجدت كل التلاميذ في الملعب العشبي الكبير، كل فصل جاثم على الحشيش خلف مدرّسته بملابس بيضاء تعكس شمس لندن. جلت ببصري حتى رأيتكما ولوحت بيديّ عالياً، لكنكما كنتما مستغرقين في الحديث -كلٌّ مع مجموعته. شلّتك يا آدم تتألف من شخص واحد: سام (أنت مثل أمك.. «شلّتي» تقتصر على أم سام!)، شلّة زكريا -وأنت أدرانا بزكريا- تضم كل الباقين.

بعد انطلاق المسابقات بقليل وصل أبوك وتحلقت فوراً الأمهات. وجدت كلٌّ منهن سبباً لإلقاء التحية عليه (وأحياناً عليّ بالمرة!). تسأل إحداهن بلا مناسبة: أليس الطقس خلّاباً اليوم؟! أو تعلّق بلا داعٍ: ما أبهى ربطة عنقك يا دكتور! أتود أن تعرف كيف تصرفت؟ كما أتصرف دائماً: استدعيت ابتسامة بلاستيكية وثبتّها على وجهي وتظاهرت بمتابعة الرياضة التي -مثلك- تقتلني مللاً يا آدم. ثم يا آدم! إذا كنت تقرأ هذا الآن فأنت تعرف كم يساوي مجرد وقوف أبيك إلى جواري، تفهم أن موافقته على الاحتفاظ بك هنا، معنا، في بيتك، أن اقترافه جريمة في سبيل ذلك تجعلني أتغاضى عن أي شيء. ويومها بالذات على أي حال لم يكن في أبيك عقل -وهو الذي يشم اهتمام الجنس اللطيف على بُعد أميال- إلا لمتابعة الفوز والخسارة. خلع الجاكت وشمّر عن ساعديه وانطلق يشجّع أخاك الذي راح يفوز ويفوز أياً كان المطلوب: ركض، وثب، زحف.. قاطرة لا سبيل لوقفها. وبنهاية كل مسابقة كان أخوك ينظر لوالده، ويسدد لكمة للهواء فيحترق كفّا أبيك من التصفيق.

لكن الطريق إلى الجحيم يا آدم مفروش بتلك المسابقات النهائية التي يتوقف عليها كل شيء. والمسابقة النهائية اليوم كانت جماعية: سباق تتابع ينبغي على فصلكم بأكمله أن يفوز فيه. بدأ السباق قوياً، أنت بنفسك رأيت استماتة زكريا التي جعلت الآباء والأمهات يسألوننا عن اسمه كي يهتفوا به. ترددت في جنبات الفناء أصداء صيحة جماعية، Go Zach! Go Zach! وفي الجزء الأخير من السباق -عندما صار الفوز قاب قوسين أو أدنى- حلّ الدور عليك يا آدم.. وأنت تعرف الباقي. لم تستطع -أيها القارئ النهم، مشيّد قلاع الليجو، داهية الشطرنج، مساعد ماما الأول في صناعة البسكوت- لم يكن بمقدورك أن تضاهي منافسك. وبذلك انتهى اليوم بخسارتكم في اللحظة الأخيرة رغم كل شيء.

عندما انفضّ المتفرجون ورأيتُ أخاك يركض نحونا.. في الثانية عشرة مثلك، لكنه يوشك أن يماثلني طولاً من الآن.. وجهه في حمرة باصات لندن، وثيابه معجونة بعشب الملعب أحسست بعرقه ودموعه يمتزجان مِلحاً في فمي أنا. كان يصرخ كمن لا يصدق نفسه: «خسرنا! وكله من آدم! هو اللي خسّرنا!».

أتعرف ماذا فعلتُ يا آدم؟ مشيت! تعللت بأني سأبحث عنك. لكني في الحقيقة جبنت أن أبقى وأسمع بأذنيّ ما سيقوله الاثنان في حقك. أنت لم تشكُ لي شيئاً يا آدم، صنفُك زاهد في الشكوى، تنازلت عن نصيبك منها لأخيك. لكنني أرى أباك وهو يتحجج بالصداع كي لا يلاعبك الشطرنج، ثم ينخرط في جولة مصارعة -صاخبة- مع زكريا. أسمعه يتذرع بضيق الوقت كي لا يشاهد فيلماً معك، ثم يمضي الساعة التالية في تحليل نتائج الدوري الإنجليزي مع أخيك.

وجدتك تسير أمامي على العشب مطرق الرأس ثقيل الخطى. سقط قلبي وخشيت أن تكون الخسارة كسرت شيئاً بداخلك. احتضنتك وسرت إلى جانبك وسألتك: «بتفكر في إيه؟». هل تذكر ما قلته لي حينها؟ هل تذكر إجابتك؟ أنا أذكرها.. وكيف لي أن أنساها؟ توقفتَ عن السير ونظرتَ للسماء مظللاً عينيك بكفّك. قلت:

- «لما بتبصي للسما... بتحسي إنك شايفة الفضاء اللي بره الأرض؟ زي مثلاً.. زي اللي بيتفرج من شباك بيته على الشارع؟».

أدهشني السؤال يا آدم لكنني أجبت بأن هذا فعلاً ما أشعر به عندما أنظر للسماء: كمن ينظر من نافذة بيته للشارع. ثم أنت قلت:

- «تخيلي كده لو إننا في الحقيقة بنبص لجوّه! الأرض بتاعتنا دي (ودبدبتَ بقدميك على العشب) هي اللي بره، العالم اللي بجد مدينة كبيييييرة.. موجودة في السما. إحنا برّاها. لما الشمس بتكون طالعة كده زي دلوقتي، بتعمينا ومش بنشوف بيحصل إيه جوّه المدينة، لكن بالليل بيبان شوية اللي بيحصل عندهم، بنشوف النجوم وهي بتنور حفلتهم اللي مليانة نور.. ومزيكا.. وغنا!». وكعادتك عندما يخطر لك خاطر فتقاسمني إياه ولا تنتظر رداً، تركتني واقفة هناك وذهبت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٢-

مـا أصعب أن تكون في الرابعة عشرة!

عندما همّ آدم بالنوم راوده خاطر أخفق في تحديد مصدره. إحساس بالذنب.. أو بالخزي.. أو بشيء آخر تماماً أقل وطأة. كشعورك عندما تتذكر موقفاً محرجاً، أو حماقة قلتها جعلت منك أضحوكة. لمعت ذكرى ما حدث في ذهنه للحظة ثم تاهت فوراً وسط أفكار أخرى كثيرة، كل ما بقي خجل مبهم من شيء ما. دون الذكرى التي لا يعلم حتى إن كانت حقيقة أم خيالاً كيف له أن يتصالح مع ذاته؟ كيف له أن ينام؟!!

ألقى نظرة على زكريا النائم في السرير المقابل. تقول أمه: «زكريا وأبوك الاتنين، قبل ما راسهم تلمس المخدة يكونوا بياكلوا رز مع الملايكة». وتقول أيضاً إن إغفال الصلاة يميت القلب، أياً كان ما يعنيه هذا. أيكون شعوره الغامض بالذنب بسبب أنه لم يؤدّ الفرض؟ قام فتوضأ وصلى العشاء. ثم قرر أن ينفّس عن ضيقه بالكتابة. قرفص وسط السرير وغطى نفسه تماماً بالبطانية وفتح كراسته، بدا كخيمة منتصبة وسط الظلام. أمسك القلم بيد ومصباحاً يدوياً بالأخرى وكتب:

«لا أستطيع أن أقاوم الشعور بأن شيئاً مرعباً سيحدث، أو أنه بدأ يحدث

بالفعل، نهاية العالم مسار بدأ مع ميلاد العالم.. من ملايين السنين».

«تعود أمي من عملها مرهقة.. تشكو من زميلها المراوغ الذي يحيل المرضى إليها، أتظاهر بالإنصات وأنا أذوب إشفاقاً عليها من اللحظة التي سيصطدم فيها مذنب ضخم بكوكبنا فنتفتت جميعاً ذرات لا مرئية في أقل من ثانية».

«أشاهد زكريا من نافذة الغرفة يلعب الكرة مع أولاد الجيران ويقفز في الهواء لإحرازه الهدف الخامس، فأتخيله وهو يتصارع مع مجرم عتيد على آخر رغيف خبز في المدينة تبقّى بعد ثورة جياع المدينة على مترفيها، ويعتصرني الألم وأنا اتخيله يخسر».

«يتابع أبي ثائراً هزيمة الزمالك حتى يكاد يحطم التلفزيون، فأرثى لحاله عندما تتصحر غابات الأمازون ويذوب جليد القطبين، وتتآكل أطراف جزر المملكة المتحدة حتى تطمرها المياه، وأرى أبي شاخصاً أمامي يدور ويدور في دوامة مائية زرقاء تبتلعه مع ملايين غيره، هل سيهون الأمر لو كان الزمالك قد فاز؟».

«توصلت الآن فقط بينما أكتب هذه السطور لاكتشاف مهم! عندما أفكر في قضايا العالم الكبرى أصاب باليأس، نحن محاطون بالمصائب: الإرهاب..

الفقر.. الجوع.. العنصرية.... سأجبر نفسي على أن أكون مثل كل شخص آخر: سأقصر تفكيري على الأمور الصغيرة: حذاء رياضي جديد أدخر لأشتريه، كتاب أنتظر وصوله إلى المكتبة كي أستعيره، أو.. أو مايا...»

«حسناً.. مايا. كبرنا معاً، كانت دائماً كأخت لي -لأنها أخت سام، أقدم أصدقائي- لكن مؤخراً.. كلما أراها يحمرّ وجهي ويجفّ حلقي وأتفوه بتفاهات وأفعل سخافات، أتحوّل لكائن أكثر حماقة حتى مني. ثم.. ثم حدث ما حدث بالأمس!».

«جاءتني في راحة الغداء وعيناها مغرورقتان بالدموع. طلبت أن تكلمني على انفراد. قادتني إلى ساحة المدرسة الخلفية، وراء صناديق القمامة، تلك البقعة المشبوهة.. مركز القبلات والسجائر وما إلى ذلك. كنت غير مرتاح على الإطلاق، وفجأة انفجرت باكية، أمها تعاملها بسوء، روت تفاصيل كثيرة، لم أفهمها، أمها صديقة أمي، بمثابة خالة لي، سيدة طيبة. لم أعرف ماذا أقول. لم أدّعِ يوماً أني خبير في النساء الباكيات، ملفّ النساء هذا بِرُمّته من اختصاصات زاك. لكن كل ما قرأته في حياتي يجمع على أن التصرف في حالة كتلك هو أن تحيطها بذراعيك وتدعها تبكي وتبكي، بينما تبدو عليك أمارات التفهم وتصبح موحياً بالثقة. فتّشت في مخي جيداً حتى تأكدت أنني لم أقرأ أبداً تعليمات بأن تلهي المرأة الباكية بدغدغة قدميها مثلاً، أو بإبهارها بحيلة كوتشينة. لذا اتبعت حدسي: أحطت مايا بذراعيّ، تركتها تبكي وتبكي، عدلت ملامح وجهي بحيث أبدو متفهماً وموحياً بالثقة. وبدا لي.. بدا لي أنني ولأول مرة أحسنت التصرف مع مايا!».

أعاد آدم قراءة الجزء الأخير مرتين. أطفأ المصباح وابتسم لنفسه في الظلام، ثم مزّق الورقة ووضعها تحت وسادته. سيلقي بها في القمامة عندما ينهض في الصباح.

-٢٣-

حـتى ثلاثة شهور خلت كان محل أبو حسني أتعس محل حلاقة في «ميت أبو النور»، صاحبه ضيق الخلق طويل اللسان، كراسيه ممزقة جاحظة المصارين يشكشك حشوها قفا الزبون، مراياه بالية لا تعكس شيئاً، مسودّة بنقوش متداخلة كأنها شفرة من كتاب مسحور، زناخته ملغزة: هل مصدرها أوعية الماء الذي لا يتغير أبداً أم صنّة الحمام أم عرق أبو حسني نفسه أم مزيج نتن من كل ما سبق؟

ما أبعد اليوم عن ثلاثة شهور خلت! فقد تقاعد أبو حسني وقعد عند باب المحل متفرّغاً لسباب الداخل والخارج ليل نهار. وتولى الأمر حسني نفسه، مدمن الإنترنت الذي يواكب كل جديد تتفتق عنه الأذهان في وادي

السيليكون. أبقى حسني على لافتة المحل التي تقول «الورشة الفنية لضبط الجماجم البشرية»، لكنه تخلّص من كل شيء آخر: المرايا والصابون والشفرات وأوعية الماء الآسن. لم يحتفظ إلا بكرسي حلاقة واحد وضعه في الزاوية كضيف شرف.. ضريح لتخليد إرث الأسرة، نذير للزبائن بأن ما مضى قد يعود فيصبح حاضراً مدلهمّاً.

ومحل كل تلك الخردة وضع حسني ستة أجهزة كومبيوتر رثّة لو رآها آلهة وادي السيليكون ببدانتها وطنينها الجهوريّ لشرَوْها بالملايين باعتبارها تراثاً إنسانياً منقرضاً، ولأمروا حسني أن يكفّ عن التعبد لهم. وفوق كل جهاز لصق على الحائط ورقة مكتوبة بخط اليد تقول:

«أصول استخدام قهوة الإنطرنت:

١- مافيش قهوة - إنطرنت وبس.

٢- الدفع مقدماً والدقيقة تجرح الساعة.

٣- مرحب بيكم ٢٤ ساعة في الـ ٢٤.

وأخيراً «الإحساس نعمة».

والحقيقة أن المحل لا يخلو من الزبائن أبداً. وها هو الآن والساعة لم تصل للعاشرة من هذا الصباح الأغسطسي: كل أجهزته مشغولة. أمام أحدها يجلس فتى في الخامسة عشرة، عيناه البنيتان تتواريان خلف عدستين غليظتين لا يربطهما سوى لاصق كان يوماً ما أبيض. وجهه متجمّد على الشاشة كالمفتون لكن أصابعه نائمة في حجره، فحسني ذات نفسه ينحني من ورائه على لوحة المفاتيح، تتنقل أصابعه على أزرارها كعشرة مصارعين (وزن الريشة) يتقافزون على حلبة. وأخيراً فرد حسني ظهره وقال:

- «خلاص يا عم بلال، كده بقى عندك فيسبوك، عيش يا عم!».

في خلال دقائق يفهم «بلال» اللعبة. يذهب للمكان المخصص للبحث عن

أناس على الفيسبوك ويكتب «زكريا عبدالعليم عبدالحميد جاد»، يحدّق في الجهاز لثانيتين ثم يضرب جبهته بقعر كفه ويلعن غباءه ويكتب بدلاً مما سبق: «زكريا ياسر البحيري». يفكر الجهاز قليلاً ثم يردّ بحسم: «لا نتائج». يتذكر بلال أن الواد زيزو الآن بالتأكيد يكتب بالإنجليزية، وبمساعدة الجالس بجانبه يجرب بلال صيغ الهجاء الممكنة لذلك الواحدة تلو الأخرى حتى عثر أخيراً على ضالته:

«Zak Beheiry»

يهتف: «يابن الإيه يا زيزو!».

بعد كل هذه السنين كيف تخطؤك عيناي يا زيزو؟ ما زلت وسيماً يا ابن الإيه، ما زلت تقف منتصباً، فاتحاً صدرك.. لا تهاب العالم.

فانلته البرتقالية تكاد تضاهي لون شعره الذي يأسر شمس الغروب، يقف فوق صخرة في مكان مفتوح... حديقة كبيرة أو غابة. سمى بلال بالله وكتب بأصابع مثلجة: «زكريا إنت زكريا؟ أنا أخوك بلال» وضغط زر الإرسال. بعد لحظة أضاف: «أنا بلال عبدالعليم جاد ابن بهانة عزبة قرموط ميت أبو النور مركز دقهلية». جلس يحملق فيما كتب، ثم لام نفسه على قلة ذوقه فأضاف رسالة ثالثة: «سلامو عليكو».

واصل التحديق وكأن تركيز نظره سيجسد الردّ أمام عينيه. بعد دقائق طويلة لم يحدث فيها شيء تحوّل ليطالع الصور، في معظمها وجد زكريا يتوسط مجموعات من البنات والشباب يحمل -ويحملون- زجاجات خمر. يهتف ثانية: «يا ابن الإيه يا زيزو!» بعض الصور لزكريا وحده: واحدة وهو يقلب شيئاً على البوتاجاز حافي القدمين عارياً إلا من بوكسر أحمر، يضحك ويهمّ بضرب المصوّر بملعقة كبيرة. وأخرى وهو منكفئ على منضدة عالية يحاول كيّ قميصه دون أن يخلعه، يحملق في الشاشة بفم مفتوح وحاجبين مرفوعين كمن بوغت بالكاميرا.

أخذ بلال يلتهم الصور التهاماً، حتى كاد ينسى أمر الردّ الذي لم يأتِ. ثم أبصر صورة تجمع زكريا بشاب في مثل عمرهما أحسّ بلال أنه يعرفه من قبل، ولكن من؟ وكيف يكون هناك شخص مشترك بينهما في الكوكب الذي انتقل زكريا إليه؟ تملّكه غيظ شديد من أنه لا يجد تفسيراً، فكبر الصورة بحيث يظهر فيها ذلك الآخر فقط، ثم فهم تفسير هذا الشعور: فالفتى نسخة منه هو نفسه، من بلال.. نسخة طبق الأصل؛ وكأن بلال ينظر في المرآة. ذلك فقط يبدو أطول.. نظارته أفخر.. شعره أخف. استعان بجاره مرة أخرى فبصقت طابعة حسني البدائية نسخة من الصورة. ناداه حسني من مكان ما خلفه:

- «شايفك يا بلبول! الورقة بنص جنيه!».

هزّ بلال رأسه موافقاً دون أن يلتفت. وعندئذ ظهرت أسفل الشاشة كلمات معدودة:

- «بلال! مش ممكن! وحشتني ازيك».

استحال وجه «بلال» ابتسامة كبرى، وصار يقفز في الكرسي وينظر يميناً

وشمالاً؛ يتوق أن يصرخ ليشاركه الجميع فرحته لكن أحداً لن يفهم المعجزة الصغيرة التي حدثت للتو. هجم علىِ لوحة المفاتيح وانطلقت أصابعه:

«وحشتني يا واد يا زيزو عامل إيه يلا أمي بتسلم عليك هتيجي إمتى». لكن هذه المرة لم يأتِ الرد، غاب زكريا ثم غاب وغاب وطال الانتظار. بدأ الزبون التالي يحوم حول جهاز بلال، ونصحه جاره بأن يضغط زراً اسمه «ريفريش» ففعل، لا جدوى، ضغط جاره زراً أو اثنين ثم قطب جبينه وهمهم:

- «الله؟! ده صاحب الحساب قفله، مسحه خالص من على وش الفيسبوك.. إنت قلت له إيه يخرب بيتك؟!».

نتش بلال الصورة وركض مشفوعاً بصياح حسني: «النص جنيه يلا!»، وقفز في أول توكتوك متجه إلى عزبة قرموط. رمى للسائق آخر قروش في جيبه ومضى مشيَّعاً بالشتائم. اقتحم الدار فوجد أبويه يأكلان.. نظرا تجاه الباب بذهول:

- «جرى إيه يا واد رعبتنا يخرب مطنّك؟!».

رمى بالورقة على الطبلية وصرخ: «آني لقيت زكريا.. لقيته عل الإنطرنت.. ولقيت معاه واحد.. مين ده يا با؟؟ مين اللي واقف جنب زكريا ده يا مّا؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٤-

كـان الظهر يؤذّن عندما اقتحمت بهانة وعبد العليم دار الحاجّة أسمهان، وجداها في غرفة الجلوس مع فاطمة التي فزّت من الأرض كصبية في العشرين. صرخت الاثنتان بمزيج من الخوف والاحتجاج، لكن القادميْن لم يعيراهما بالاً. ألقت بهانة بالصورة في وجه أسمهان وهتفت:

- «مين اللي في الصورة ده يا ست!!! ابني ده ولا ابن مين ده يا ست؟!!».

صاحت فيها فاطمة:

- «إنتي انطسيتي في مخك يا بت؟! احفظي أدبك مع أسيادك يا بت المجنونة لابيتك في التخشيبة انتي وجوزك»..

لكن أسمهان -لذهول فاطمة- زجرتها هي. قالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- «امشي انتي دلوقتي يا فاطنة.. امشي غوري واقفلي على نفسك باب أوضتك».

انسحبت فاطمة وهي تضرب كفاً بكفّ. وصلها صوت بهانة مفعماً بالتحدي:

- «وليه؟ ما تخليها تسمع.. خلّي اللي ما يشتري يتفرج!».

لم تعد أسمهان تتذكر وقتاً لم يكن طعم الأيام فيه مرّاً، لكن اليوم علقم من النوع المخصوص؛ فكل نَفَس منذ الصباح يساوي طعنة خنجر في كتف أسمهان، طعنة تلو طعنة تلو وخزة تلو شكة: هكذا حال تنفُّس أسمهان اليوم. استجمعت كل قوتها كي تنطق حفنة كلمات:

- «استهدي بالله بس يا بهانة.. اقعدي يا بنتي، اقعد يا عبده، النار اللي بتكويكم قايدة في قلبي آني كمان».

- «قلبك؟ آني قلبي بيتحرق على ابني بقاله عشر سنين يا ست!!».

انهارت بهانة على الأرض، وأخذت تجذب شعرها وتصفع فخذيها وتردد:

- «قلبي اتحرق على ابني يا ناس.. هاتولي ابني.. أنا عايزة ابني».

امتلأت الغرفة فجأة برجال ليسوا كالرجال. أقدامهم من قطن، تمتص كل صوت، سحنتهم صبورة، متأنية، تتقلب بين حنان وحسم. رمقتهم أسمهان بجزع وسألت:

- «خلاص؟ دلوقت؟».

بدون كلمة واحدة يُفهمونها أنهم ها هنا منتظرون حتى تذهب معهم.

قال عبد العليم:

- «خلاص إيه ودلوقت إيه؟ يا ست أسمهان احضرينا بالله عليكي.. الواد اللي في الصورة ده يبقى ابننا ولا ابن مين؟!».

لهوله وهول امرأته لم تسبّهما أسمهان، لم تطردهما أو تتهمهما بالجنون، بل أخذت تتنقل بعينيها من أحدهما للآخر، ثم تنظر ذات اليمين وذات الشمال بلا سبب، تمسك برأسها كمن يصيبه دوار وتمسح بكفها قطرات عرق كبيرة فوق فمها وحاجبيها. وأخيراً همست:

- «ابنكو عايش.. آدم عايش.. معاهم في بلاد بره.. مع فاتن وجوزها.. وزكريا».

سكت نواح بهانة فجأة، وتسمّرت أعين الاثنين على أسمهان. لآخر لحظة كانا مقتنعيْن بأن هناك لبساً ما، أن ابنهما مات وشبع موتاً وأن أسمهان ستقنعهما بذلك بشكل أو بآخر، لم يتصورا ألا تكذب على الأقل.

أما أسمهان فواتتها قوة من حيث لا تدري. طرحت نفسها أرضاً إلى جانب بهانة، احتضنتها عنوةً وقبّلت رأسها. اشمأزت الأخيرة ونهضت مبتعدة، لكن أسمهان أمسكت بقدمها تحاول تقبيلها هي الأخرى:

- «ارحميني يا بنتي.. كان غصب عني.. معادش فيه وقت».

تلفتت حولها بخوف وواصلت بسرعة:

- «مسامحة يا بهانة؟ مسامحة يا بهانة؟».

أي وحدة تلك التي كانت تخشاها عندما تحين النهاية؟! إن الدار تمتلئ وتمتلئ بالرجال حتى لا يعود هناك موطئ لقدم. لم تشهد دارَها مكتظةً هكذا منذ خطوبة فاتن، منذ عزاء العمدة، منذ عزاء آدم. تتأملهم أسمهان وتدرك أنها تعرفهم من قبل أن تولد.. إنها كانت في انتظار لقائهم طوال العمر. وتنتبه فجأة إلى أنها برَأت.. ذهب الألم. أهكذا إذن يشعر الأصحاء؟ يغمرها إحساس بالسلام نسيته منذ زمن بعيد.

عندما فقدت الوعي قال عبدالعليم لزوجته:

- «امشي بينا يا بت من هنا لما نشوف راح نعمل إيه مع ولاد الحرام دول».

نظرت بهانة باحتقار للجسد المطروح أرضاً، بصقت عليه، ثم هرولت للبيت خلف زوجها.

مدّ عبدالعليم يده داخل الدولاب الصغير الغائص في الحائط وأخرج المظروف الذي أعطاه إياه الدكتور ياسر البحيري قبل عشر سنين. طالع الورق المصفرّ وهز رأسه وهو يتمتم لنفسه:

- «شوية الورق دول قصاد بني آدم يا ولاد الكلب!».

وصلا المنصورة مع هبوط المساء. اختارا حيّاً متواضعاً وسألا عن مكتب محاماة، ودخلا أول عمارة دلّهما عليها أولاد الحلال.

وضعا الورق على مكتب المحامي الذي تُعرّفه لافتة صغيرة قلما يلحظها أحد بـ«الأستاذ قنديل علي حسن - محامي شاطر ودماغه حلوة». شرح عبدالعليم الموضوع للأستاذ، بينما بهانة ترمق من طرف عينها البدلة الصيفي والساعة الصدئة والكرش الدخيل على الجسد النحيل، وتقيّم إن كان رجل كهذا قادراً على مساعدة أي أحد.

اتسعت ابتسامة الأستاذ قنديل علي حسن واتسعت واتسعت حتى ابتلعت وجهه. أخذت عيناه تضمحلان شيئاً فشيئاً حتى تلاشتا تماماً بوصول القصة لنهايتها. نشّف العرق من وجهه وصلعته بمنديل ورقي خلّف فُتاتاً أبيض بين شعيرات ذقنه غير الحليق. ثم قال بالصوت الذي يدخره عادة لقاعة المحكمة:

- «شوفوا بقى يا بلدينا.. ديه قضية كبيرة ومضمونة بإذن واحد أحد.. موقفكم قوي جداً يا حاج.. آني مش بس هارجعلك ابنك يا حاجّة، آني هاجيبلكوا فوق منه تعويض ضخم، كبشة فلوس! ديه قضية مركبة.. جناية خطف طفل، وجناية تزوير في أوراق رسمية، تزوير هنا اهو في مصر، وتزوير وجُرسة عندهم في بلاد بره! ودولم دكاترة، يعني شطب من نقابة الأطبا.. صحيح! اللي يعيش في صنعتنا ديه يا ما يشوف! النفس البشرية أمّارة بالسَّوْ! تعرف اسمنا بَشَر ليه يا حاج؟ يعني بِ.. شرّ، معجونين بِشَرّ!»

مروحة السقف تدور فوق رؤوسهم، النوافذ مفتوحة وكذلك الأبواب، ومع ذلك فقيظ أغسطس جاثم وسط الغرفة كمنطاد بدين. في الخارج امتزج أذان العشاء بأبواق السيارات ونداء بائعي مدينة المنصورة. وفيما وراء المدينة، في بقعة متوغلة من الريف امتدت يد لمؤذن مسجد السلام بورقة كي يقرأها قبل أن يغلق الميكروفون. نظر فيها وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. إخوة الإيمان والإسلام، انتقلت إلى جوار ربها الحاجة أسمهان محمد عطية بهنسي، البقاء لله وحده. أقم الصلاة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٥-

بعـد قليل وفي مدينة ما بشمال اسكتلندا لا مكان فيها لقيظ أغسطس جلست فاتن والهاتف على أذنها تستمع لمن يخبرها بأن اليوم الذي كانت تخشاه جاء. أبقت عينيها على زوجها طوال الوقت وأبقى عينيه عليها، يطالعها بقلق وتطالعه في انبهار. ولما انتهت المكالمة قالت: - «كنت باتهمها إنها بتبالغ! وإنها مش عيانة للدرجة دي! وإنها لسه صغيرة! وهي فعلا صغيرة!».

- «الله يرحمها».

- «ده أنا كنت خلاص نازلة مصر عشان أشوفها أول المؤتمر ده ما يخلص!».

- «هو حد عارف إمتى بييجي الأجل؟».

- «أنا لازم أنزل مصر!».

- «بلاش كلام بلا معنى. ولاد الحلال هيتولوا مسؤولية الجنازة والدفن.. ودخولك بلدكو هو الغباء بعينه».

- «على الأقل نرجع لندن! نعمل عزا في البيت! نعمل أي حاجة!».

- «ما احنا هنرجع كلها تلات أيام والمؤتمر يخلص، والمسافة من هنا للندن أربع خمس ساعات. مش جبتي مصحفك معاكي؟ اقريلها شوية قرآن».

استلقى على السرير وضبط المنبه على الثامنة صباحاً ليلحقا بمحاضرة التاسعة، وفي خلال دقيقتين كان يغطّ في نوم بلا أحلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٦-

«فـورد اسكورت، موديل ألفين واتنين».

كلماته الخمسة فجّرن دقائق خمسة من القهقهة والترفيس. لكن زكريا الذي تعلّم منذ زمن بعيد أن الهجوم خير دفاع زعّق في الجميع:

- «باقولك إيه انت وهو، ولو بسكلتة! أهو ده الموجود.. حد تاني هنا يقدر يسرق عربية أبوه؟».

كان الرد فاحماً بما فيه الكفاية ليلتقط الآخرون أدوات الكونترول من سكات ويواصلوا سباق السيارات على البلاي ستيشن. كريس - جيمز - هاري، جيران زكريا وزملاء المدرسة الثانوية الذين مثله أتموا السادسة عشرة مؤخراً. سبق أن روى ثلاثتهم لزكريا -كل على حدة- أنهم لم يلحظوا قبل مجيء زكريا إلى هذا البيت أن به تلميذاً في مدرستهم. فتوأمه آدم على حد وصف كريس وهو الأكثر لباقة: يميل للهدوء، والحديث معه على حد وصف جيمز وهو الأكثر وقاحة: يثير الملل أكثر من الحملقة في المرآة حتى ينبت شاربك. أما على حد وصف هاري الأخصب خيالاً بين الثلاثة فآدم: نصف شبح، يتجسد فقط إن كلّمك مباشرة، فيما عدا ذلك هو خفيٌّ طول الوقت.

استقرت الوَدْوَدة على إنهاء هذا السباق ثم الخروج في جولة ليلية (للدقة صباحية؛ فالساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل) في سيارة الدكتور ياسر البحيري. أي نعم كان يستحسن أن تكون الركوبة بي إم دبليو أو ميني كوپر، لكن الشحاذة والاختيار يتنافيان بالضرورة. ينبغي قنص الفرصة الذهبية التي تتمثل في أن كلا والدي زكريا مسافران لحضور مؤتمر طبي في مدينة متجمدة ما في الشمال. ثم إن نتيجة الشهادة الثانوية ستظهر في الصباح أي بعد ساعات معدودة. ومن الضروري الاحتفال (قبل) ظهورها، لأن (بعد) ظهور النتيجة لا يعلم إلا الله إن كان هؤلاء الأربعة بالذات سيجدون مبرراً للاحتفال.

حان الوقت إذن لمغامرة جديدة، مشروع ناجح آخر ينضم إلى الـ C.V التي تحمل بالفعل إنجازات تدعو للفخر منها مثلاً:

- شرب البيرة للمرة الأولى (حقق الأربعة ذلك الإنجاز وهم في الحادية عشرة فقط وهو سن مشرّف للغاية - سرق هاري من أجلهم زجاجتين من ثلاجة بيته).

- تقبيل فتاة للمرة الأولى (كان لزكريا السبق، فقد قبّل ربيكا ذات النظارات السميكة خلف صندوق القمامة في مدرستهم، وهو بعدُ في الثانية عشرة، وتوّج في التو خبيراً في كل ما يتعلق بالفتيات).

والآن ستمكنهم «استعارة» السيارة من الذهاب إلى بيت صاحبة جيمز، وإذا تمكن جيمز من التسلل لغرفة نومها وأبواها نائمان فمن يدري؟ قد يشهد هذا الفجر الوليد إنجازاً تاريخياً يتوج به جيمز خبيراً في الفتيات بالمعنى الحقيقي الوحيد للكلمة.

بينما هم يناقشون تفاصيل من قبيل من سيقود وكيف الطريق وماذا نقول إن أوقفتنا الشرطة دخل عليهم آدم. نظر إليه الأربعة للحظة ثم أعادوا أنظارهم للتلفزيون بلا تعليق.

ظلّ واقفا لدى الباب يمسك بالمقبض، لثوانٍ فكر ألا يقول ما جاء من أجله، وأن يكتفي بمتابعة السباق، لكنه استجمع شجاعته وقال بالعربية:

- «زاك، اللي انت ناوي تعمله ده غلط وانا مش هاسمح بيه».

رفع زكريا خدّاً واحداً فقط على سبيل نصف ابتسامة وقال دون أن يحوّل نظره عن التلفزيون:

- «انت مين انت عشان تسمح وما تسمحش؟».

- «طب اطلع بره هنا عشان نتكلم لوحدنا».

- «يابني إنت أهبل؟ دول مش فاهمين ولا كلمة.. عايز إيه؟».

- «انت ممكن تعمل حادثة، وممكن تتحبس، وممكن...».

- «يا ابني حادثة إيه؟ هو أنا زيك؟ أنا باعرف أسوق!».

ضحك آدم بتهكم وقال:

- «You don’t say»..

- «باطّلع العربية لبابا كل يوم من الجراج ولا لأ؟!»

- «قصدك بتسخّنها له الصبح!»

لم يردّ زكريا فوراً، كان كريس يحاول الاصطدام بسيارته وإخراجها من السباق. عضّ على طرف لسانه الذي يخرج تلقائياً في مثل هذه اللحظات.

- «زاك! أنا باكلمك! مش خايف بابا وماما يعرفوا؟».

هنا ترك زكريا ما بيده ونهض. أوقف الثلاثة الآخرون السباق وأشعلوا سجائرهم انتظاراً لعودته. اقترب من آدم حتى لم يعد هناك أكثر من شبر بين وجه زكريا الأشقر الذي تتناثر على صفحته حبوب الشباب الفائرة، ووجه آدم

ببشرته القمحية ونظارته الطبية، وشعره الذي بدأ انسحاباَ تكتيكياَ يُنذر بصلع صريح في غضون حفنة أعوام.

قال زكريا بصوت خافت:

- «أنا ما باخافش، ولو عرفوا مش هيبقى من حد غيرك، ولو إنت قلت يا آدم أنا كمان هاقول».

- «هتقول على إيه؟ بلاش nonesense!»

- «إنت اللي بلاش استعباط، هاقول على مايا اللي بتقابلها كل يوم على محطة الباص، وشغال معاها تشات أربعة وعشرين ساعة في اليوم».

همس آدم بحدة:

- «ما تقولش اسمها قدامهم يا غبي!».

لكن زكريا صدح بنغمة أوبرالية: «Maya Maya Maya Maya!» ثم نظر لأصدقائه الثلاثة وابتسم فأحسوا أنه ينتصر في المشاجرة التي لا يفهمون منها شيئاً، وهنأوه بمزيج من الابتسام وهزّ الرؤوس.

- «يا بني المدرسة كلها عارفة. ماحدش مغفل غير أبوك وأمك.. وخليهم مغفلين كده أحسن! أصل ما ينفعش يعرفوا على البارفان اللي انت اشتريتها لها بفلوس درس القرآن مثلاً.. ولّا التقيلة بقى! البوسة السخنة اللي ضبطتكو في نصّها هنا اهو.. في الأوضة دي.. بس أنا ساعتها فرحتلك والله، من بُقّها مرة واحدة! ده انت جامد قوي! I’m proud of you man!»

تدفق الدم لوجه آدم وصرخ:

- «كداب! ما حصلش!»

- «Fair enough.. أمال بوستها فين؟».

- «اخرس أحسن لك!».

- «بجد أنا dissapointed جداً! عامل فيها روميو زي الخواجات؟ إيه عشان عايشين وسطيهم يعني؟ دي ماما مربيانا كويس ومفهمانا ديننا، إحنا مسلمين يا راجل! إنت نسيت إن إحنا مسلمين ولا إيه؟!»

- «باقولك shut the fuck up!».

كوّر آدم قبضته وانتفخ عرق في جبهته. لكن زكريا أخفض ذراع أخيه وهو يقول:

- «انت هتضربني ولا إيه يا دُوما يا حبيب مامي؟ باقولك إيه.. إنت بالذات أول واحد فينا هتركب العربية دي، رجلك على رجلنا عشان أضمن إنك ما تفتنش يا حلو!».

رغم الشرر الذي يتطاير من عيني آدم لمح فيهما زكريا رغبةً في القدوم.

ثم قال آدم بنبرة أهدأ:

- «ده أنا جاي أقولك تعالى نقرا قرآن ولا نصلّي ولا نعمل أي حاجة، إنت مش قلقان؟ دي النتيجة ما فاضلش عليها إلا كام ساعة!».

- «وأقلق ليه؟ أمال الشرب اخترعوه ليه؟ وبعدين الدور والباقي عليك إنت يا دكتور، عندك طموحات ماليش أنا فيها».

أطلق زكريا ضحكة صغيرة بها رنة حزن، أو هكذا خُيّل لآدم.

واصل زكريا:

- «عموماً لو قلقان يبقى تيجي معانا.. Take your mind off it. مع إنك morose ومالكش أي تلاتين لازمة، إنما أديني هاخد فيك ثواب! وبابا وماما بحّ.. زمانهم دلوقتي.. أمك بتقول إيه؟ بياكلوا تشيبس مع الملايكة!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٧-

على بعد مئات الأميال وبمجرد أن تفوه زكريا بتلك الكلمات استيقظ ياسر الذي كان يغطّ في النوم بجوار زوجته في الفندق. أيقظه رنين هاتفه، ولما جلس وجد فاتن مستيقظة، تقرأ من مصحف صغير. تبادلا نظرة قلقة وتلمّس الهاتف في الظلام فوق منضدة الغرفة غير المألوفة وهو يقول: - «في إيه تاني؟! الساعة اتنين بالليل!».

- «ربنا يستر على الولاد!».

- «لا ده رقم من مصر! ألو؟!».

جاءه صوت غليظ لم يسمعه من قبل: - «الدكتور ياسر البحيري؟».

- «أيوه مين؟».

- «أرجو ما اكونش أزعجتك.. بس آني قلت إنتو في بلاد بره بتصحو بدري! مش الساعة عندك سبعة الصبح برضك؟».

- «الساعة اتنين بلليل.. بس حضرتك تبقى مين؟!!».

- «يووووه.. حقك عليا.. معلهش.. أول مرة أكلم حد في أوربه!! آني يا سيدي اسمي قنديل علي حسن المحامي.. وانت خلاص راحتك اتقلت واللي كان كان.. فاضي بقى ندردش حبتين؟».

- «ندردش بخصوص إيه؟!».

- «بخصوص آدم».

نظر ياسر لزوجته مصدوماً وقال: - «آدم ابني؟!».

- «أيوه ابنك أمال إيه.. هو صحيح اسمه الرباعي آدم عبدالعليم عبدالحميد جاد، إنما نمشيها ابنك ولحمك ودمك وفلذة كبدك كمان عشان خاطرك!».

وفي غضون نصف ساعة كان ياسر وفاتن يجلسان على متن القطار المتجه إلى لندن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٨-

الليلة غير مقمرة لكنها على الأقل غير ممطرة، هكذا طمأن زكريا نفسه وهو يجلس في مقعد القيادة سائقاً شرعياً لا ينافسه أحد. وبجانبه جلس كريس ليلعب دور الملّاح بعد أن حمّل عنوان صديقة جيمز على هاتفه المحمول، بينما في الخلف جلس جيمز نفسه مع هاري وآدم الذي انطلق في صمت يسبّهم جميعاً هم والليلة التي جمعته بهم والثانوية ونتيجتها، ولحظة أن زرعت أمه ومدرسوه في رأسه الرغبة أن يصبح طبيباً.

استجابت السيارة لضغطة زكريا على دواسة الوقود بحماس أشد من اللازم، فاندفعت للوراء وارتطمت بشيء ما أحدث دوياً هائلاً.

«Shit.. دي صفيحة الزبالة»، اشتعل نور في نافذة بيت الجيران لكن زكريا أسرع منطلقاً. وبعد الخمسمائة متر الأولى شعر بأنه متحكم إلى حد كبير، لم يضايقه إلا مِقود الفورد اسكورت المعروف بثقله، ولمّا اشتكى قال له جيمز:

- «فيه اختراع اسمه power steering اخترعوه من ييجي ميت سنة كده تبقى تقول لأبوك عليه!».

التفت اليه زكريا بحدة وكال له من قاموس الشتائم ثنائي اللغة الذي تعب في تجميعه عبر السنين، لكن كريس أسكتهما قبل أن يتطور الأمر لشجار، وأغرق تلاسنهما تحت أمواج أغنية الراپ التي صدحت من هاتفه.

اقترح أحدهم أن يتوقفوا أمام متجر الكحول لشراء كم زجاجة بيرة، لكن البيع ممنوع لمن هم دون الثامنة عشرة، وقد يثير منظرهم الشبهات، ثم إن زكريا ما صدّق أن يتمكّن من السيارة ولم يكن واثقاً أنه سيتمكن من إيقافها. وهكذا تقرر مواصلة الطريق لمنزل صاحبة جيمز التي -بكل تأكيد- لن تضنّ عليه بزجاجتين أو ثلاثة تقديراً لمجهوداته.

كانت الساعة نحو الرابعة صباحاً عندما قال صوت السيدة التي تشرح إرشادات الطريق من هاتف كريس You have reached your destination. وجدوا البيت مظلماً كما يرجون. تجاوزه زكريا وأوقف السيارة في شارع جانبي. اتصل جيمز بالفتاة فأكدت أنها بانتظاره أمام الباب، وأنها أبطلت سِنسُر مصباح الإنذار الخارجي. ودّعه أصدقاؤه متمنين له أن يعود سالماً غانماً غير متأخر.

في الحقيقة عاد جيمز بعد دقائق معدودة محملاً بكيسين مليئين بالبيرة المثلجة ومتبوعاً -وهو الأهم- بصاحبته شحماً ولحماً. هتفت الفتاة بمرح «Good morning boys!» وأعطى جيمز الأكياس لكريس في المقدمة وجلس

في مكانه بالخلف، آخذا صاحبته على حجره. ساد الوجوم للحظة قال بعدها هاري:

- «Man.. you’re fast»

على خلفية الضحك الجماعي الذي انطلق عندئذ (آدم ذاته لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام) قال الوافدان إن لديهما فكرة رائعة: ستأخذهم الفتاة لأقرب حديقة عامة حيث سيمضون ليلهم دون أن يزعجهم أحد. بثقة أكبر هذه المرة أدار زكريا المحرك وانطلق بالسيارة، تبدد الحذر من رأسه بتأثير أشياء مرتبطة وغير مرتبطة في نفس الوقت: (وجود الفتاة - قيادة السيارة - المبيت في العراء - رائحة الكحول - الخوف من النتيجة).

صدحت الموسيقى عالية وفتح كلٌّ زجاجته عدا آدم الذي لم يسبق له أن أغضب الله على هذا النحو، وليس مستعداً أن يشرع في ذلك قبل ساعات من ظهور نتيجة الامتحان. رآه زكريا في المرآة وهو مقطب الجبين يلتصق بالباب وينظر عبر الزجاج للظلام بالخارج بينما الآخرون يضحكون ويشربون ويردّدون كلمات أغانٍ تعني كل شيء ولا شيء. بدا له آدم عندئذ مرّيخياً وسط سكان الأرض، ذكّره منظر آدم بمريخيّته هو عندما جاء إلى هذا البلد البارد قبل عشر سنين.. لا أعاد الله تلك الحقبة! تمتم زكريا: «كئيب ابن كئيبة طول عمرك!» وأعاد عينيه للطريق.

وفي المرة التالية التي نظر فيها زكريا لأخيه في المرآة تسمّرت عيناه على كرة حمراء وأخرى زرقاء تلفان حول نفسيهما. ثم انطلقت سارينة الشرطة تأمرهم بالوقوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٩-

عندما يحطّ الضباب على شارع ويدمور ستريت تغطي غلالة الدخان الكثيفة كل مفرداته من بيوت وأسفلت ورصيف وحدائق وأعمدة إنارة، يتوارى كل شيء ما عدا شجرة الصفصاف؛ فتلك تنتصب في وسط الشارع كمنارة تبث الأمل في النفوس، فيتمكن السكان من استنتاج إحداثيات بيوتهم والسباحة نحوها عبر الماء العالق.

وصل ياسر وفاتن إلى شارعهما في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم في منتصف أغسطس، ربما كانت السابعة أو قبلها بدقائق، ورغم الضباب فقد أدركا على مستوى غير بصري، مستوىً يتعلق بحواس أعمق من حاسة البصر، أن شيئاً ما ليس كما يجب أن يكون.

غاصا وسط الغيمة البيضاء حتى بلغا البيت فوجدا مكان السيارة شاغراً، شاغراً جداً. وقف ياسر في بؤبؤ البقعة التي يصفّ فيها عادة والتي بدت الآن عارية، يكاد يتوقع أن يلمس السيارة؛ أن تكون موجودة ولكن لسبب ما غير مرئية. ظلا يطالعان صندوق القمامة المطروح أرضاً ومحتوياته المبعثرة في كل مكان حتى رن هاتف فاتن. أضاءت شاشته وسط الشبورة بكلمة Unknown. جاءها صوت زكريا مرتجفا:

- «ماما؟».

- «زكريا؟! إنتو فين؟!».

- «إحنا في الـ.. إحنا في الـ police station. ممكن ترجعي من السفر بس من غير ما تقولي لبابا؟ عشان إحنا in trouble شوية كده».

- «trouble يعني إيه؟! إحنا رجعنا فعلاً.. واقفين قدام البيت.. إنت وأخوك كويسين؟».

- «كويسين يا ماما بس أرجوكي تعالي لوحدك، هو لازم بابا يعرف؟ أرجوكي لو سمحتي يا ماما please!».

في قسم الشرطة كان الضابط متسامحاً، فقد مرّ عليه من هذا كثير بالذات من شباب في سن زكريا وآدم. في الحقيقة أنه كان أكثر من متسامح؛ كان ممتناً للأسرة التي أنقذته من نوبة عمل كادت تقتله مللاً. حيّاهما بحماس رافعاً صوته ليُسمع زكريا:

- «آه! وأبوك أيضاً جاء! هاها! عندما قلتُ لزاك إن من حقه مكالمة واحدة فقط قال فوراً: أمي! أمي! سأكلم أمي! أخذ يرتجف كبنت صغيرة مذعورة! يبدو أنه كان يتمنى ألا يسمع أبوه بالخِبر! هاها! تفضلا تفضلا».

تلفّت الاثنان حولهما واستسلما تماماً لانقباض النفس الذي ينتاب المنحدرين من المنطقة العربية غريزياً كلما احتكّوا بالسلطة. إنه «چين الخوف» من الشرطة ورجالها الذي يولد به بالضرورة كل مواطن شريف من نسل مواطنين شرفاء. ثم إنها المرة الأولى لفاتن والثانية لياسر في القسم بعد سبعة عشر عاماً كاملة في هذا البلد، المرة الأولى كانت للإبلاغ عن سرقة دراجته. يبدو أن قرعته في المشاكل مع القانون ستقع دائماً على وسائل الانتقال. لم يضيع الضابط وقتاً وقال على الفور:

- «سأقول لكما هذا: لا خسائر في الأرواح! ولا حتى إصابات بالغة ولا طفيفة، فقط خدوش على جانب السيارة.. كان الحظّ حليفهم الليلة الماضية! زاك هنا.. لنقل إنه فقد برود أعصابه قليلاً عندما أمرناه بالتوقف، فقد توازنه، (واصل القيادة حتى الحائط)... حرفياً هذه المرة! ليس فقط كما يقول المثل! فهمتها؟ هاهاها! المهم، حكّ زاك سوراً معدنياً وهو يوقف السيارة.. انبعجت بعض الشيء، لا شيء يستدعي إلقاءها في القمامة! هاها! آسف سيدتي لو أحبطتك! لا مبرر لشراء سيارة جديدة! ليس بعدُ على أي حال!».

يبدو أنه كان يتوقع بعض التقدير لروح الدعابة التي يتحلى بها، لكن تحت تأثير المصائب التي انهالت وتنهال على رأسيهما منذ الليلة الماضية لم يسعهما إلا تأمله في صمت: رجل مصنوع من حفنة خطوط مستقيمة؛ الأنف والفم والحاجبان والكتفان وعيدان القش فوق الرأس وثنيات المكواة على القميص الازرق، كلها رفيعة ومرسومة بالمسطرة. سأله ياسر باقتضاب عن المطلوب.

- «المطلوب غرامة ٢٠٠ پاوند.. وتوقيعك إلى جانب توقيع زاك على الاتهامات، وهي القيادة دون رخصة ودون تأمين وتحت تأثير الشراب.. آه! شيء واحد أخير: إذا قرر زاك يوماً ما -لا قدّر الله- إصدار رخصة قيادة سيجد مفاجأة صغيرة بانتظاره! سيجد ست نقاط مخصومة سابقاً من رصيده! هاها! رخصة مخصومة الرصيد من قبل أن تولد!».

- «وبخصوص آدم؟ لا مشاكل أبداً مع آدم؟!».

- «لا سيدي. آدم لم يكن جالساً وراء عجلة القيادة، وبتحليل دمه أخفقنا في العثور على قطرة كحول واحدة. سيظل سجله ناصعاً كالثلج! آدم لا غبار عليه! بريء كحمل وديع! آدم في الأمان!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-٣٠-

وقفنا خارج القسم في وجوم، نتجنّب النظر لبعضنا. بكل تأكيد يبدو منظرنا مضحكاً، ثلاثة عمالقة وقزم.

أتابع المارة والباصات وألمح أكثر من واحد وواحدة متجهين للمدرسة لتسلم النتيجة. جسدي مرهق وعيناي لا تطيقان وهج الشمس وفمي صحراء لم يروِها المطر منذ مائة عام. أعراض hangover كاملة ومشرّفة! حدوتة شيّقة هذه لجرّ الكلام مع الفتيات.. إجابة cool لو سألني أحدهم: «كيف أصبحت يوم تسلم نتيجة الثانوية يا زاك؟ سيقول البشر العاديون: كنت قلقاً، منقبضاً، واثقاً... أما أنا فسأقول لأولادي وأحفادي: كنت hungover.. والأدهى أنني سأكون صادقاً».

أمي الوحيدة التي تتنقل بنظرها من أحدنا للآخر للرصيف. أستقبلُ موجات غضب تنطلق من أبي فتخترقني حتى النخاع. عيناه مثبتتان على الشارع، لكن جانب رأسه يفي بالغرض ويزيد، أعرف جيداً هذه الانحناءة: زاوية معينة تُدّخر لمثل هذه اللحظات.. أبلغ من أي صراخ. وأعرف الشعرات البيضاء التي تنبت بغتة في مؤخرة عنقه فقط عندما يبلغ الحنق به مداه.. أعتى من ضربة كفّ أبي التي خبرناها -آدم وأنا- مراراً. الدكتور ياسر البحيري لا يدخل أقسام شرطة، لا يدفع مالاً مقابل الإفراج عن ابنه، ولا يوقّع تعهدات بألا يخالف ابنه القانون ثانية. بعد أيام فقط يحلّ عيد ميلادنا، وعن نفسي كنت سأطلب منه سيارة! والمفارقة الحقيقية أنه كان غالباً سيوافق.

كعادته، أساء آدم تقدير هول اللحظة، تحدث في براءة ممزوجة بالقلق:

- «مش هنروح المدرسة؟ النتيجة بتتوزع دلوقتي».

خطوة خاطئة يا آدم يا ولدي!

- «إنت بالذات مش عايز أسمع صوتك!! طول عمرك بتخذلني!!».

- «متأكد إن أنا اللي باخذلك؟!».

لولا الذهول الذي تحدث به آدم لظننته يحاول الإيقاع بي كهدف وحيد له في الحياة.

- «كنت فاكرك هتعقّل أخوك!».

- «You’re so fucking unfair!»

آخ. الموضوع يتطور بسرعة! تدخلت ماما، حمامة السلام التي دائماً وأبداً تأخذ صف آدم:

- «آدم! اسكت بقى كفاية!».

- «إنتي مش سامعاه؟ ما يكلم زاك! ما هو واقف قدامه!!».

زاك!! ولماذا الزجّ باسمي الآن؟ إنه فعلاً يسعى للإيقاع بي كهدف وحيد له في الحياة!

- «بتزعق فيا يا حيوان؟! إنت نسيت نفسك؟! طب والله لولا إننا في الشارع...».

- «what a load of bullshit! أنا رايح أشوف النتيجة!».

استدار وهمّ بالسير لكن أبي دفعه في كتفه بقسوة فكاد يسقط:

- «إستني عندك!! أنا جاي بنفسي».

ثم نظر لماما باحتقار وابتسم في تهكم:

- «لما نشوف الدكتور آدم عمل إيه!».

- «ربنا يفرحنا بيهم الجوز! آدم وزكريا! خبر خير إن شاء الله يا خويا!».

عندما تجزع أمي تعود تلقائياً للهجة «ميت أبو النور»، العيش في بريطانيا ألف سنة لن يغيّر هذا.

دخل أربعتنا المدرسة، وأحسست بأحشائي تذوب لمشهد الطلاب وهم يتسلمون شهاداتهم من سرادق أقيم خصيصاً لهذا الغرض في الفناء الأمامي. تبخرت آخر قطرة كحول من رأسي وأفقت تماماً على حجم الفاجعة التي توشك أن تحدث. داهمني يقين بأن سقوطي في الامتحان سيكون أكثر ترويعاً من أسوأ توقعاتي، والمصيبة الحقيقية أن هذا صار فجأة أمراً يهمني كثيراً لا أستطيع حياله أن أتظاهر باللامبالاة حتى أمام نفسي. وقفت وآدم مترددين أمام السرادق يستجمع كل منا شجاعته كي يتقدم لتسلم شهادته، نظرنا لبعضنا البعض فوجد كل منا رعبه منعكساً في وجه الآخر. يقولون عنا توأمين غير متطابقين، لكن جزعنا في هذه اللحظة متطابق جداً. عندئذ سمعنا صوتها، مدرسة مادة الاقتصاد التي انشقّت الأرض عنها أمامنا. لها صوت كاسف مغتمّ على الدوام وكأنها تنعي لك عزيزاً. قالت بأسف:

- «صباح الخير، ناظر المدرسة بانتظاركما في مكتبه. يريد تسليمكما الشهادة بنفسه».

أي شيء حدث بعد تلك اللحظة كان في الحقيقة زائداً عن المطلوب. وكأني عرفت ما سيُقال في اجتماع الشؤم ذلك كلمة كلمة بمجرد أن فتحت تلك البومة فمها.

وفعلاً، قال الناظر إنه سيبدأ بالخبر السار: فقد بلغ تفوق آدم حداً جعل أرفع كلية طب في المملكة المتحدة، King’s College، تقدّم له منحة لإكمال دراسته بها؛ ليسبق أقرانه بعامين كاملين، ويا له من أمر يدعو للفخر وإلخ إلخ.... ثم.. وفي عبارة مسرحية بدا الناظر سعيداً بأنه سيستخدمها أخيراً عرفنا أن الأمر ينطوي على مفارقة كبرى، إن الخبر السار بشكل استثنائي مصاحب للأسف بخبر سيئ بشكل استثنائي أيضاً، وأن الخبرين يتعلقان بمدرسة واحدة، بل بأسرة واحدة: «لقد رسب زاك في كل المواد! كلها! إنه واحد من ثلاثة فقط رسبوا على مستوى المحافظة!».

تنهد ومسح وجهه بكفيه وأردف:

- «لا أخفيكم.. أنا محبط للغاية! لا أصدّق أن يسجل تاريخ المدرسة حالتين صارختين هكذا في يوم واحد! كما أنني حائر، فاختبارات الذكاء تشير إلى أن زاك ذكي جداً بطبيعته، بل إنه يحقق نتائج أعلى من آدم في مقاييس الذكاء! يبدو لي أن آدم بذل مجهوداً خارقاً ليستعين به على ذكائه المتوسط، وأن زكريا بذل هو الآخر مجهوداً خارقاً.. كي يقمع ذكاءه فوق المتوسط!».

ثم نظر لي وخاطبني مباشرة:

- «أراهن أن والديك لا يعلمان أنني في بداية هذه السنة أخبرتك بأن تفوقك الرياضي كفيل بأن تتلقى منحة جامعية مرموقة، كسبت الرهان، صح؟ وأراهن أيضاً أنهما لا يعلمان أنك توقفت تماماً عن ممارسة كل الأنشطة الرياضية في اليوم التالي لحديثنا. لماذا تسعى لهدم مستقبلك يا زاك؟ لماذا؟!».

أسأل نفسي الآن كما سألت نفسي حينئذ، هل كان رسوبي مدوياً جداً؛ لأن تفوّق آدم كان مدوياً جداً؟ أجيب دائماً بالإيجاب. فنظرة واحدة على وجه أمي وأبي تكفي للتأكد من ذلك. لكن الأمر أكبر من هذا. المسألة ليست سهلة لكنني سأحاول شرحها: لو لم يكن آدم متفوقاً جداً، طيباً جداً، مثالياً جداً ومؤدباً جداً فبكل تأكيد كنت أنا سأكون أفضل حالاً. أما والحال كما هو عليه، فيجب على أحدنا أن يعوض نقصان الآخر حتى يتمّ الواحد الصحيح.

لاحقاً، تظاهرت بالخروج من البيت لكنني مكثت في الجراج، عاجزاً عن مواجهة أي أحد. أبقيت النور مطفئاً والباب مغلقاً وجلست هكذا في الظلام أقلب في هاتفي بلا هدف. أعتقد أن آدم نائم في الغرفة بالأعلى، الوحيد في هذا العالم الذي لا يخرج في يوم كهذا ليحتفل لمجرد أن أباه لم يهنّئه وأن أمه ليست فرحة من أجله (كما سمعته يولول لها). أبي وأمي في غرفة الجلوس، أسمع همهماتهما عبر الحائط الرفيع الذي يفصل بين البيت والجراج. لا أفسّر ما يقولان لكنه حديث مضطرب، ميلاد مشاجرة. لن أتحمّل هذا الخناق الذي

يُحكم حول صدري كثيراً، سأخرج وأواجه الناس وأجد طريقة للسخرية من مصيبتي هذه، ومن نجاح الآخرين على حد سواء. لكن في اللحظة التي هممت بها بالنهوض رنّ جرس هاتف أبي وسمعت خطوات مسرعة تخرج من البيت. وقف أبي أمام الجراج ليتلقى الاتصال الذي يبدو أنه لا يريد لأحد منا أن يسمعه. ماذا؟! هل يخفي أبي سراً ما؟ علاقة بامرأة أخرى مثلا؟ وقفت وراء باب الجراج بالضبط وسمعته يفحّ في الهاتف بإلحاح ثم رفع صوته وقال:

- «ده ابتزاز! أنا لا يمكن أقبل! بلّغ بهانة وعبدالعليم إني لو دفعت فلوس يبقى من كرم أخلاقي! وإن ما حدش هيصدق تخاريفهم! وعموماً اهو ابنهم موجود، لو هيموتوا عليه كده ياخدوه ونرتاح من خلقته»!

أنهى الاتصال وفتح باب البيت ودخل مجدداً.

للوهلة الأولى أيقنت أنه يتحدث عني. بهانة وعبدالعليم يريدان استعادتي! ولكن بأي منطق هذا؟ كانا يربياني لقاء مبلغ شهري حتى حلّ أبي مشاكله المادية واستعادني لأعيش معه هنا ومع أمي وأخي. هكذا قيل لي دائماً. وفجأة ثار في عقلي خاطر كاد يطيح بي أرضاً، فتحت هاتفي وبحثت حتى وصلت لصورة كنت التقطتها لمحادثتي مع بلال، «بلال عبدالعليم جاد ابن بهانة عزبة قرموط ميت أبو النور مركز دقهلية»، هكذا عرف نفسه رفيق اللعب القديم، رمقت صورته في المحادثة ومرّت في ذهني أشياء كنت أحسبني نسيتها: ذلك الشبه بين آدم وبلال الذي هوّن عليّ الكثير والكثير عندما انتزعت من أسرتي القديمة، تعليقات المدرسين والجيران والأصدقاء عبر السنين عن اختلاف الشكل بين آدم من جهة وثلاثتنا من جهة أخرى، شكوى آدم الملحمية من أن أبي لا يهتم لأمره، إنه يتجاوز عما أفعل أنا أيا كانت بشاعته ويقف له هو بالمرصاد.

فتحت باب الجراج بحذر، وابتلعني الظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣١-

أنهب السلالم نهباً إلى غرفتي وأصفع الباب من ورائي. أرتمي على السرير وأبكي وأبكي. أحتقر الشعور كضحية وأحتقر نفسي لأني فعلاً هكذا: مجرد مظلوم يرثى لحاله. لكنني مهما قلّبت الأمر في رأسي لا أجدني مخطئاً في شيء. وكيف أتحمل ولو ذرة مسئولية عن فساد أسعد أيام حياتي؟

أتصل بمايا فيرن هاتفها طويلاً حتى ينقطع الاتصال. أعيد الكرة ثانية وثالثة دون جدوى. خارج النافذة أظلم النهار بغيم ثقيل.

كم كان الأمر أسهل قبل قدوم زكريا! كان أبي مزاجياً عصبياً سهل الغضب، لكني كنت أحتمل. المهم هو: لم يكن هناك غيري لأقارَن به دائماً ولأخسر في المقارنة دائماً. ثم فليشرح لي أحد! كيف أخسر هكذا على الدوام؟ إنني أحاول وأحاول وأحاول!

ولكني لست مضطراً للتحمل بعد اليوم. سأترك هذا البيت بلا رجعة. سأتعلم مجاناً بفضل المنحة التي حفرت الصخر بأظفاري حتى نلتها، وسأصبح طبيباً كأبي فلا تكون له ميزة عني. ودعهما الاثنين يشبعان بزكريا! بأصدقائه وشعبيته ووسامته وتفوقه الرياضي وبكل مزاياه التي لم تشفع له اليوم ولن تشفع أبداً!

تطرق أمي الباب برفق وتدخل. ألاحظ أنها ترتدي ثوباً خالص السواد، كمن في حالة حداد. كل هذا من أجل زكريا؟! وأنا؟! ألست ابن هذه الأسرة أيضاً يا عالم؟! ألاحظ كذلك أن عينيها متعبتان جداً، منتفختان وحمراوان. أكاد أسألها عما بها لكن شيئاً بارداً في عقلي يعلن عن وجوده لأول مرة، يأمرني بصوت واضح أن أبادل البغض بالبغض.

تجلس جانبي على السرير وتقول كلاماً كثيراً حانياً. لكنني لا أردّ وأكتفي بالنظر من النافذة. «أنا هاعملك احتفال كبير يا دُوما.. إنت رفعت راسي.. بس اليومين دول يعدوا على خير»، تتنهد ثم تخرج من جيبها شيئاً وتضعه على الوسادة. تربت على كتفي وتهمس: «ألف مبروك يا حبيبي»، ثم تمضي.

أنظر فإذا هما ورقتان من فئة المائة جنيه. أفتش في محفظتي وأجد مائة جنيه ثالثة هي مدّخراتي عبر فترة طويلة ماضية.. كنت سأشتري بها عقداً لمايا. أضع النقود كلها في المحفظة وأمسك رأسي الذي يكاد ينفجر، أنهار على وسادتي وأتأمل المطر وهو ينهمر وينهمر وأخطط للهروب كالتالي:

١- أحضّر حقيبة.

٢- أنتظر حلول الظلام.

٣- .....

٤- .....

٥- .....

لا أفكار لديّ البتة! لكن كلي ثقة بأنني بمجرد أن أترك البيت سأتصرف. أغيب في نوم مضطرب وأرى نفسي طائراً فوق سحاب ككرات قطن تسبح في جِبر.. من تحتي محيط بلا قرار وجبال حالكة وبراكين تتقيأ حمماً مخيفة. أبصر أمي جالسة ترتعش وسط صخر رمادي بارد.. رأسها مطرق وتحتضن نفسها وتنتحب. أحطّ أمامها وأسألها «ما لك يا ماما؟» ترفع وجهها وتقول بهلع: «فستاني الإسود ضاع!» أخبرها أنه لم يضع وأنها ترتديه الآن بالفعل، لكنها تهز رأسها يميناً ويساراً بحسرة على بَلَهي وتؤكد:

- «انت مش فاهم!! فستاني الإسود ضاع!!».

يوقظني خفق متلاحق في قلبي وألم أسفل صدري. أفتح عينيّ فتقعان على النافذة، الستائر لا تزال مفتوحة والمطر مستمر والقمر ماكر يطل من بين الغيمات. سرير زكريا فارغ لا يزال. أنهض مفزوعاً وأفتح هاتفي لأعرف الوقت؛ الحادية عشرة مساء. موعد مثالي للهروب، فوالداي ينامان مبكراً وزكريا لم يعد للآن. أجلب حقيبة ظهر، وأرمي فيها ببعض الملابس بالإضافة للنقود والهاتف.

لا ذنب لمايا، ولن أحرم نفسي من وداع وجهها الجميل قبل أن أرتمي في أحضان هذا الليل. سأمرّ ببيتها في طريقي لـ.... لحيثما سأذهب.

أبحث عن شاحن الهاتف فأجده في الدرج وبجواره جواز السفر، فألقي بالاثنين في الحقيبة دون تفكير. أطلق سعلة تهكم دونما ابتسام؛ فركبتاي المرتعشتان خوفاً من فكرة عبور عتبة هذا البيت لن تعبرا حدود البلد بكل تأكيد.

باب غرفة والديّ مغلق كما رجوت. أهبط السلم بحرص. أمرّ بالمطبخ فأتذكر الطعام وأملأ حقيبتي بالخبز والتفاح وعلب العصير. خارج البيت أقف مذهولاً.. أشم رائحة المطر الداكن وأحاول أن أستوعب أني لأول مرة في الشارع بينما والداي يظناني نائماً في السرير.. يفعلها زاك كثيراً.. يفعلها الآن حالاً على سبيل المثال. لكن ذاك زكريا.

أرفع غطاء المعطف على رأسي وبمجرد أن اخطو خطوتين أرى النور مضاءً في الجراج وألمح بابه المطلّ على الشارع مفتوحاً. أقترب فتتناهى إليّ موسيقى خافتة. هذا بالتأكيد زاك وربما معه أصدقاؤه الأغبياء. سمح له أبي باستِضافتهم في الجراج ما بقيت الموسيقى خافتة حتى لا يشكو الجيرانِ.

وكأن هذه هي المشكلة الوحيدة، وكأن تدخين السجائر ليس خطأ، وكأن شرب البيرة ليس حراماً! صحيح أن أبي يشرب من حين لآخر لكن..

يجب أن أمضي في طريقي قبل أن ينتبه أحد لي، لكنني أسمع همساً وضحكاً مكتوماً. يهيأ لي.. يهيأ لي أن تلك ضحكة مايا! أقترب بلا صوت فإذا بزاك يجلس في مواجهة فتاة، شعرها بني كعينيها، طويل كقطعة مخمل، ترتدي فستاناً برتقالياً أعرفه جيداً. فستانا تجمعني به ذكريات! إنها مايا! كانا منكفئين على شيء يطالعانه سوياً، هاتف أحدهما المحمول. رأساهما أقرب من اللازم.. تتلامسان وتبعدان ثم ترجعان.

رفع زاك عينيه فأبصرني وظللنا ثواني صعبة محدقين ببعضنا، كل ما أراه من وجهه المستتر وراء شعر مايا هما عيناه الخضراوان، والآن هما تضيقان وتضيقان بفعل ابتسامة خفية فيبدو كهرّة شبعت. انتبَهَت مايا أنه ينظر لشخص ما فاستدارت وحيّتني ببساطة.

- «there you are!»

لا ارتباك على الإطلاق إذن! بل بادرتني قائلة إنها جاءت تبحث عني بعد أن لمحتني سريعاً في المدرسة هذا الصباح. طالعت -عمداً- شاشة هاتفي وقلت بنبرة شحنتها بالاتهام أني لم أتلقّ اتصالات ولا رسائل من أحد. أدارت عينيها الواسعتين لفوق كمن يستنجد بالعناية الإلهية وقالت لا، لم أتصل، ولم أبعث رسائل.. فصّلت أن آتي بنفسي! هذه مشكلة؟!

اتسعت ابتسامة زاك وسط وجهه المتورد بلا مبرر، أقسم أن الفاشل ثمل لليلة الثانية على التوالي! ولم لا.. إذا كان الراشدان في هذا البيت يتعاميان. أشار للحقيبة على كتفي وقال ساخراً: «خارج تحتفل؟».

تجاهلته وسألتها:

- «مايا! بتعملي إيه هنا؟!».

لكنه أجاب قبل أن تتمكن هي، قال بالعربية:

- «بتعمل اللي تعمله. هي مايا دي متسجّلة باسمك؟ أنا سالتك كتير وانت

قلت مافيش بينكو حاجة. وهي كمان قالت مافيش حاجة! يبقى مافيش حاجة!».

دمي يغلي لكن الشلل أصابني. أي لذة شاذة تلك أن أظلّ واقفاً هكذا، فريسة سهلة لعدو يبغضني، أستقبل موجات كراهيته وكلماته المسممة، أطالع ملامحه وهي تتلوى لتعكس حقده.

ثم أردف:

- «بس بصراحة؟ معاك حق.. صاروخ!».

جذبها نحوه فارتمت بين ذراعيه وهي تطالعني وتضحك بذهول. قالت:

- «أحدهم مخمور تماماً!».

برأ الشلل وألقيت بنفسي عليه وسقطنا سويا. ارتطمنا بهرم صغير من صفائح الدهان فسقطت بدورها محدثة جلبة هائلة. انهلت عليه باللكمات حتى أفاق -على ما يبدو- من تأثير السكر، فأزاحني بسهولة ثم جثم فوقي وأخذ يلكمني بدوره حيثما اتفق، في صدري وبطني وذراعيّ. كان يصرخ كالملتاث:

- «إنت إيه اللي مقعّدك عندنا؟ حلّ عننا بقى يا أخي! إنت مش ابن ياسر البحيري! إنت مش ابن ياسر ولا ابن فاتن!».

استعدت تلك الكلمات لاحقاً. أما لحظتها فكنت راقداً على ظهري، ألعن نفسي لبدء مشاجرة مع عملاق كزكريا، وأنا الذي لا أمارس إلا الرياضة الذهنية. تلمّست بيديّ من حولي شيئاً ما، أي شيء يصلح لأضربه به، التقطت أول جسم صلب وجدته وضربته في جانب رأسه، فصرخت مايا وركضت خارجة. توقف لكمات زكريا وأخذ يحدق فيّ بذهول، لمس الجرح بأصابعه ثم طالعها، وقد تخضبت بالدماء وتحول ذهوله لشيء آخر، وكأنه حسم أمره، عقد النية على شيء ما.

نهض زكريا عني ووقف يطالعني وهو يترنح. ونظرت في يدي فإذا بالشيء الذي ضربته به مصباح سيارة مكسور. وقفت أنا الآخر في مواجهته أحملق في وجهه المضرج بالدماء. استبدّ بي ذعر ممزوج بالحيرة؛ هل أطلب المساعدة أم أهرب بجلدي؟ لكنه أنقذني من المعضلة، قال في عجلة كمن يخشى أن يدركه الوقت:

- «هابعتلك صورة هتفهّمك. أنا لو منك أرجع لأهلي اللي شاريّني.. ما أقعدش ثانية واحدة عالة على حد!».

في الطابق الأعلى اشتعل ضوء غرفة والديّ ورنّ هاتفي بوصول الصورة. ألقيت على زكريا نظرة تمنّيت من أعماقي أن تكون الأخيرة. ثم استدرت خارجاً.

شقّ الباص طريقه لمركز المدينة وسط المطر، وافترشت الأرض في محطة فيكتوريا، وقد انسحب مني كل شعور، فلا غضب ولا حزن ولا كراهية. فقط الرغبة في أن أرحل من هنا، أن أقطع تذكرة ذهاب بلا إياب إلى أبعد نقطة في الكون.

أخرجت الهاتف وفتحت الرسالة؛ صورة من محادثة فيسبوك بين زكريا وشخص لا أعرفه. يقول السطر الوحيد:

«أنا بلال عبدالعليم جاد ابن بهانة.. عزبة قرموط ميت أبو النور مركز دقهلية».

هكذا عرّف نفسه (قريني) المرسل؛ بشرته قمحية، شعره أسود خشن، قوامه نحيل قصير، نظره ضعيف.

طالما روت أمي -وأيّدها أبي- القصة على النحو التالي: ولدتنا توأمين -غير متطابقين- في مصر وعادت بأحدنا فقط لأنها وأبي كانا منشغلين بالماجستير والدكتوراه وتسديد الديون. وقع الاختيار عليّ لأنني وُلِدت مريضاً وهزيلاً. سألها زاك ذات مرة: «وليه ما سبتونيش مع تيتة أسمهان؟». ردت: «تيتة ست كبيرة، ووحدانية، وكانت بتشوفك كل يوم! إنت كنت صغير ومش فاكر»، قبلنا القصة كما لُقِّنّاها وتوقفنا عن التساؤل. الآن تبدو لي قصة مهترئة جداً، مليئة بالثغرات كثوب تسلى عليه الفئران.

كدت أغرق في بحر من الشفقة على حياتي التي اتضح أنها كذبة ليس إلا. لكني أدرك أن وقت القنوت سيأتي إن عاجلاً أو آجلاً. الأجدى الآن أن أصمد لحظات لأحلل المسألة. سردت الحجج التي تؤيد ما يرمي إليه زكريا:

١- الشبه المدهش بيني وبين هذا الشخص؛ «بلال عبد العليم جاد، ابن بهانه».

٢- كل ما لقيته في بيتنا: جفاء أبي وحنان أمي المبالغ فيه على حد سواء. مئات المواقف عبر السنين التي تتدافع كالإعصار في عقلي.

٣- زكريا في الأساس يعجز عن اختلاق قصة كهذه حتى لو أراد، هو ببساطة أغبى من هذا.

ثم فتشت عن حجج تفنّد ما سبق فلم أجد سوى حجة عاطفية واهية رغم أهميتها: «زكريا يكرهني»!

أسندت رأسي على الحائط الرخامي من خلفي، وتحسست عشرات مواقع الألم في جسدي التي ستستحيل حتماً غداً بقعاً زرقاء وخضراء وبنفسجية. أبى زاك أن أترك لهم البيت دون تذكار!

مرّ مفتش المحطة منادياً في كل الاتجاهات: «القطار الأخير! سيدتي! القطار الأخير سيرحل في عشر دقائق! سيدي! القطار الأخير يوشك أن يغادر!» ثم توقف أمامي وخاطبني قائلاً: «سيدي! القطار الأخير سيغادر حالاً! إلى أين أنت ذاهب؟» كان صوته ملحّاً نشطاً وكأننا في منتصف النهار لا الليل، يغريك حماسه بأن تجيب فوراً كي لا تخذله.

حضرني زكريا وهو يترنح سائحاً في دمه ويقول: «أنا لو منك أرجع لأهلي.. ما اقعدش عالة على حد!».

وشاهدت أبي وهو ينظر لضابط القسم في غيظ ويسأل: «وبخصوص آدم؟ لا مشاكل أبداً مع آدم؟!».

وسمعت ضحكة مايا وهي تنظر لي من موقعها في أحضان زكريا.

ثم تراءت لي أمي ترتعش وسط صخر رمادي بارد، تتحسر على بَلَهي وتقول:

- «إنت مش فاهم!».

تذكرت كيف وضعت جواز السفر في الحقيبة في آخر لحظة -وكأن القدر يوجهني- قلت:

- «المطار.. مطار هيثرو».

- «رصيف رقم ثمانية إذن! بسرعة بسرعة! إلا لو كنت تنوي المبيت هنا!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣٢-

بمجرد أن عدنا من المدرسة خرج زكريا ثانية لا نعلم أين وصعد آدم إلى غرفته حانقاً، وصفع الباب ونظر لي ياسر كأنني أنا من صفعته.

جلسنا -ياسر وأنا- في غرفة المعيشة نخمّن ما يمكن أن يتمخّض عنه تهديد بهانة وزوجها والمحامي. ندور في حلقة مفرغة من التساؤلات: هل يطلبون آدم أم مبلغاً سافلاً من المال، أم لن يبردهم سوى الزجّ بنا في السجن؟

ثم كيف اكتشفوا الأمر؟ يصف لي ياسر كيف ضبط زكريا يحادث أحد أبناء بهانة على الفيسبوك فنهره وأمره بغلق حسابات التواصل الاجتماعي كلها. هل هكذا افتضحت المسألة؟ وهل وفاة أمي في هذا التوقيت بالذات مصادفة؟

الأمر معقّد وخطير ويتطلب صفاء ذهن لا يتفق مع الجوع والحرمان من النوم وزيارة أقسام الشرطة وسماع نبأ رسوب ابنك في أهم امتحان في حياته.

أحاول أن أستجمع بقايا قوة لأحضّر شيئاً لسكان هذا البيت الذين لم يذق أي منهم الطعام اليوم، لكنني مطروحة في الكرسي عاجزة عن النهوض. سأردد «يا لطيف» ثلاثاً وثلاثين مرة على مهل وأقوم بعدها. لكن هاتف ياسر يرنّ بعد أول «يا لطيف» فيحدّق فيه بجزع ثم ينظر لي كطفل تحققت أسوأ مخاوفه: «ده المحامي!».

يقول بأغلظ صوت عنده: «آلو مين؟»، يصمت قليلا ثم يهتف: «فكرت في إيه؟ هو انت قلتلي حاجة أفكر فيها؟».. يصيح ويشير بأصبعه في الهواء منذراً: «اسمع يا حضرة، أنا راجل مشغول ومش فاضي للمهاترات!» أشير له بكلتا يدي أن يخفض صوته وألطم الهواء قرب خديّ دون أن أصفعهما كي لا يسمع آدم. يأخذ ياسر الهاتف ويكمل المحادثة خارج البيت.

يتملكني شعور بالغثيان فأركض للحمام وأتقيأ عصارة صفراء. أنظر في المرآة عندما أنتهي فأبصر شعيرات الدم القاني في عينيّ وبياضاً يغزو مفرق شعري. أفكّر: ماتت أمي قبل أن ترى شعري الأبيض! أخرج فأجد ياسر قد رجع وأقرأ في وجهه خطورة الوضع. يعنفني كثيراً ولا أجد ما أردّ به. يلومني على كل ما حدث وكل ما سيحدث: أن يجد نفسه ملقى في السجن، أن يُحرم من مزاولة الطب، أن يلقى جحوداً من الطفل الذي عطف عليه ورباه، وها هو الآن يصرخ في وجهه ويسيء الأدب، أن يفشل زكريا في حياته التي بدأها بسابقة جنائية قبل أن يصل للسابعة عشرة.

يصرخ ويصرخ وأتوسل له أن يخفض صوته فينتبه ويواصل تعنيفه بصوت مكتوم وغضب مضاعف.

عندما يفرغ كل ما في جعبته يصمت مهزوماً وأغمض عيني وأفكر في أمي. الأسوأ من أن تموت أمك ألا تجد من تنعاها له. أن تمتزج دمعتك عليها بدمعات أخرى.

عندما ينتهي كل هذا سأجلس يا أمي وسط حفيديك لنبكيك ونتقاسم ذكرياتنا عن حنانك. لا يعرف منك آدم إلا صوتك في الهاتف وصورةً في محادثات عن بُعد تحت رحمة التكنولوچيا. ولم يعرف زكريا أنه منك إلا بعد أن غادرك. لكن حزنهما لرحيلك لن يقل عن حزني.

أتصل بزكريا فيرد بصوت بالكاد يُسمع وسط موسيقى صاخبة حوله، يقول إنه في حفل ما ويسأل ما الغرض بالضبط من البقاء في البيت والنواح على الرسوب؟ أكاد أجنّ لأخبره أن جدته ماتت وأني أحتاجه إلى جواري، لكنني أخشى أن يتوه الخبر وسط كل شيء. أكتفي بإنهاء الاتصال وبالصراخ عالياً عالياً داخل رأسي.

أصعد لآدم فأجده جالساً على السرير.. كومة من الإحباط والسُّخط. أجلس بجانبه وأهوّن عليه، أتحرق شوقاً لأن أقول: «تيتة أسمهان ماتت!» أراه يرمق ثوبي الأسود، فأتمنى أن يسألني عما حدث، لكنه يدير وجهه وينظر للمطر عبر النافذة. أعطيه مكافأة نجاحه وأتركه حتى يهدأ.

أذهب لغرفتي وأكتشف أن ليلة جديدة توشك أن تحلّ وأنا لم أنم في السابقة. أقرر أن أستريح في الفراش قليلاً. أتصور أنني لن أنام حقاً إلا بعد أن أطمئن على عودة زكريا، لكني أغيب رأسا في سبات عميق. أشعر بدخول ياسر الفراش لاحقاً لكن حتى هذا لا يمنعني من مواصلة النوم.

أستيقظ فجأة على جلبة أسفل البيت. أجد ياسر واقفاً عند الشباك وأعرف من مظهره أنه استيقظ للتو. أسأل في وجل: «إيه اللي حصل؟!» يضع أصبعه على فمه كي أخفض صوتي ثم يقول: «مفيش حاجة.. نامي انتي.. الولاد بيتخانقوا». أقفز إلى الباب لكنه يلحق بي ويمنعني، يقول: «باقولك سيبيهم! كل الإخوات بيتخانقوا» من الصعب أن أسبر ملامحه في الظلام، لكن صوته يعكس تلذذاً غريباً يقلقني. يستمر الخبط وأصوات الارتطام أسفل البيت. أصيح: «حرام عليك سيبني! ممكن يعملوا حاجة في بعض!».

عندئذ تنطلق صرخة أحسبها صرخة فتاة، فأفتح النور وأجري إلى الشباك ونرى فتاة تخرج من الجراج وتركض في الشارع.

أخيراً يفلت ياسر يدي فأفتح الباب وأهرع للخارج وهو من ورائي، نجد زكريا في الجراج وحده، وجهه مغسول بالدماء كما لم أره من قبل، ويبكي كما لم

أره من قبل كذلك. نفحص الجرح ونقرر أنه متوسط الخطورة ولا يتطلب الذهاب للمستشفى، ويضمده له ياسر بنفسه. نستجوبه فيقول:

- «خناقة تافهة، على بنت».

يتلقى ياسر اتصالاً من المستشفى، يريدونه أن يعمل الليلة محل طبيب اعتذر، ينظر لابنه في قلق لكن زكريا يقول:

- «روح يا بابا، أنا هابقى كويس».

بمجرد أن يذهب ياسر ليستعد يهمس لي زكريا في إلحاح:

- «أنا قلت لآدم!».

- «قلت له إيه؟».

أفهم ما يقصده رأساً لكني أجبن أن أعترف لنفسي أني فهمت. يتحدث أخيراً:

- «قلت له إنه مش.. ما أنا أصلي عرفت.. أنا سمعت كل حاجة.. ماما! أنا خايف يكون ساب البيت ومش راجع!».

صعدت السلم درجتين درجتين لغرفة آدم، وزكريا في إثري، فتحت درجه فلم أجد محفظته ولا هاتفه، نظرت في خزانته المرتبة دوماً بعناية فوجدت عاليها سافلها، ولاحظت أن قميص ناديه المفضل تشيلسي قد اختفى، التفتّ لزكريا الذي كان يتابعني بوجه شاحب يشبه وجهي عندما يعنفني ياسر.. لم أره نادماً هكذا من قبل ولا حتى لحظة إعلان رسوبه، ولا حتى عند استلامه من قسم الشرطة. سألته في حسم:

- «زكريا! إنت قلت لآدم إيه؟».

- «قلت له إنه مش أخويا! مش ابنك! إنه ابن بهانة!!». ثم انطلق يبكي.

توقّف قلبي ثانيتين ثم عاد يخفق بعنف. أتى ياسر يستفهم عما حصل فصرخت:

- «مصيبة وحلّت علينا! آدم هرب من البيت!»

مسك رأسه بكلتا يديه ونظر لي هو الآخر بوجه شاحب. سأل:

- «أخد جواز سفره؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المطر ينهمر بلا رحمة، زكريا وياسر وأنا جالسون في غرفة المعيشة دون كلام -دون حتى أن نتكبد عناء إشعال النور. أرى نفسي في رحلة الفرار من

هنا قبل ستة عشر عاماً. كانت ليلة مطيرة كهذه، وأرى آدم في المدينة المظلمة.. ويخفق قلبي بخوفه، ثم أراه في المطار مقهوراً يسأل عما جناه في حق أي أحد.. ويذوق لساني مرارته، وأخيراً أراه جالساً في الطائرة ينظر من النافذة لا يكاد يصدّق أنه سيفلت.. ويلفّ عقلي بنشوة الانتصار التي ستصيب آدم كالدوار عندما يرتفع العجل أخيراً عن الأسفلت.

لقد اتصل كل منا بهاتف آدم عشرات المرات حتى أغلقه فلم يعد يرنّ. ثم هاتف ياسر صديقاً يعمل في المطار وعرفنا أن هناك طائرة أقلعت الليلة تحمل مسافراً يعود لمصر بعد غربة ستة عشر عاماً، اسمه: «آدم ياسر البحيري».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣٣-

لا شيء في الغرفة مألوف، يستحيل أن أستمدّ السكينة من هذا الجدار -ولو لم يكن طينياً، أو من ذاك الشباك- ولو لم يكن مكسوراً، أو من الملاءة التي تفصل دورة المياه عنا. كل شيء موحش. يتعذر عليَّ الهدوء مهما حاولت. لو كانت كراستي معي أكنت أخرجتها أم كنت سأخشى أن تقضّ كتابتي مضجع الآخرين؟ لا أدري! تعتاد عيناي الظلام فأتبين عرقاً خشبياً بارزاً من ثنايا السقف، أتأمله وأتخيل ما كنت سأكتب لو استطعت. تتراءى في عقلي الكلمات:

«كيف يمكن أن أحيا دون حياتي؟ إذا أخذ منك كل ما عرفته حتى اللحظة، كيف تعرف أنك أنت أنت؟».

ثم -في عقلي- أمحو ما سبق وأكتب:

«سأثبت أن بإمكاني أن أحيا حياة جديدة. وسأظل أنا أنا، حتى لو سُلبتُ كل ما عرفتُهُ حتى اللحظة».

يفترش الجميع الأرض بينما أنام أنا على أريكة تسميها بهانة -أقصد تسميها أمي- الكراويتة. أقسم أبي بالأيمانات المغلظة من أول ليلة ألا تحكّ ظهر سواي. أسمعهم في تهامس آخر الليل ككل ليلة، يتحدثون حديثاً لا أفهم معظمه، لكن أصواتهم يغلفها الدفء، وشوشتهم تحتضنني، تهدهدني في النهاية ككل ليلة لنوم زاعق الأحلام.

الليلة أحلم أني واقف في حقل ترابي تتناثر فيه شجيرات بلا أوراق، فقط أغصان يابسة عارية. الشمس تلفح رأسي وتوشك أن تثقب مؤخرة عنقي، أنظر فإذا الأفرع الجافة تثمر سحباً، ألتقط إحداها فتنام في راحة يدي وتحتضنها أصابعي. وفجأة أراها، بهانة، تقف وسط الحقل وفي راحتيها هي الأخرى سحاب أبيض. بسمتها صادقة، تطال عينيها، أحدق فيهما فإذا بسوادهما ينقلب خضرة.

بعد ساعات يتحقق الحلم أو يكاد، أقف وسط حقل ما لا يمتلكه أبي ولا أمل في أن يمتلكه. أراقبه وهو يعقد عمامة بيضاء فوق رأسه كيفما اتفق ثم يثبت عليها طاقية رعاة بقر (لست أدري من أين له بها في عزبة قرموط)، ثم يطوي نصف جلبابه الأسفل لفوق ويربطه على جانب خصره فيشكل جراباً كجراب الكنغر، أنسخ ما يفعله نسخاً وأنضمّ له ولبهانة -أقصد لأمي- ولإخوتي، نجني معاً -ومع عشرات آخرين- سحابات القطن الأبيض، ملمسهن خشن ناعم في نفس الوقت، رائحتهن طازجة، طاهرة، كرائحة حلم الأمس. يمتلئ جرابي عن آخره لكنني أدفس القطن للأسفل فيخلو متسع جديد. كلما تلاقت

عيناي مع عيني أبي يرسل لي نظرة إشفاق، وكلما تلاقتا مع عيني أمي تبتسم بحزن وتشيح بوجهها.

تمرّ الساعات وتتيبس أطراف أناملي فلا أعود أشعر بشيء، وتتشقق جوانب يديّ من شكّ الأغصان. لقد وجد أبي قُبّعة رعاة بقر، فهل أجد أنا قفازاً جلدياً في عزبة قرموط؟ أتخيل نفسي واقفاً في وسط الحقل أصيح بأعلى صوتي: «A pair of gloves please!» يضحكني المشهد ويسمعني بلال فيبتسم بحب ويهز رأسه يميناً وشمالاً.

يعلو قرص الشمس جسوراً بلا اعتذار وينفضّ الناس عن الحقل. نعود أدراجنا فنجلس جميعاً في الدروة خلف دار والدي. أراقب جلسة أبي وأنسخها نسخاً: أسند ظهري إلى جذع شجرة تين وأفرد ساقاً وأثني الأخرى باتجاه السماء. فوق ركبتي القائمة تستند راحتي استعداداً لكأس شاي ستضعه بهانة -أقصد أمي- بين أصابعي. تجلب أختي فطيراً وجبناً وعسلاً. ونأكل. أريد أن أقول الكثير، أودّ أن أتأسف على أني انتُزعت منهم بهذا الشكل، على عمر ضاع لا سبيل لإعادته، لكني لا أتكلم. لا يتكلم أحد، فقط نهشّ الذباب ونتبادل نظرات الإشفاق والحزن والفرحة والأسف، ونأكل.

فيما بعد أستسلم لالحاح بلال فأصحبه لمقهى الإنترنت. يعود من هناك كل يوم مشدوهاً ويحثني بصوت لاهث: «ولا يا آدم! لازمن تشوف رسايل زيزو، ده كل يوم ألاقي منه ييجي ميت رسالة!» وأخيراً قرأت بنفسي ما رُوِي لي: «قول له يرجع البيت» - «أنا آسف» - «قول له مافيش حاجة بيني وبين مايا» - « قول له بابا مستنيك» - «ماما بتعيّط طول الوقت» - «قلت له إني آسف؟».

وفي صندوق بريدي الإكتروني أجد مائة رسالة.. من أمي، وأخي، وحتى الدكتور ياسر بنفسه. فتحت رسالته فوجدت السطر الأول يقول: «ابني آدم.. أول فرحة.. إنت بتحاول تفهم، وبتسمع القصة من اللي حواليك، لكن لو عايز تفهم بجد يبقى لازم تسمع كمان مني.. لازم تسمع من أبوك». أغلقها فوراً، لا يجب أن أقرأ شيئاً كهذا، شيئاً حميماً خاصاً كهذا، وسط الناس ها هنا في المقهى. يعرض عليّ حسني سعراً خاصاً للطباعة، فأطبع الرسائل جميعاً. ثم أكتشف وسط زحام الورق رسالة من الجامعة البريطانية، كينجز كولج، يؤكدون أنهم في انتظار قدومي لقبول المنحة المجانية، ويحددون موعداً للقاء العميد بعد أسبوع من الآن، ويحيونني في النهاية بعبارة «طبيب المستقبل».

أضع الرسائل في كيس أسود وجده بلال على الأرض، ونبدأ رحلة العودة. خطوتي ثقيلة كأن قدميّ كيسا رمل، وخطوة بلال خفيفة كريشة، بلال في

الواقع كتلة من الاستبشار.. لا أدري إن كان هكذا دائماً أم إنه فقط مسرور لعودتي. أرمقه من طرف عيني، الشبه بيننا مذهل، من يرانا قد يظننا حاليْن لشخص واحد، شقي على اليسار وسعيد على اليمين. أتشوق لقراءة رسائلي كلها، لكن رسالة الجامعة بالذات عصفت بعقلي، كنت آمل أن ينسوني، أن يسهلوا عليّ مهمة تفويت عام أو أكثر من عمري دون أن يمنحوا حسرتي زاداً. كنت أرجو أن يتآمر الكون معي على تحطيم نفسي.

من بعيد يلوح بيت أبي، تملأ أنفي رائحة حريق.. أو بالأحرى كأن شيئاً ما شاط وخبا للتو. يقول بلال: «بيحرقوا قش الرز الله يحرقهم». قبل أن أستوضحه يقفز ويشير لبيت أبينا: «ولا!! إيه تاكس مصر اللي واقف قدام البيت ده يلا؟!!»

يركض فأركض أنا الآخر حتى الباب، ونسمع أصواتاً تأتينا من الخلف، ألفّ للدِروة وعند شجرة التين أرى أول ما أري: أمي -أقصد فاتن- نعم أقصد فاتن أمي. ألمح خلفها أبي وزاك وكل الباقين، لكني لا أرى حقيقة سواها. تنهض باتجاهي وتفتح ذراعيها وهي تضحك وتبكي معاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣٤-

بـدا لفاتن أن زيجتها ليست بعيدة كل البعد عن لعبة كراسيّ موسيقية. بمعنى.. في بداية الزواج كان ياسر الآمر الناهي، يقرر كل شيء من ماذا نأكل اليوم حتى في أي بلد نعيش، مروراً بهل تكشف فاتن شعرها أم تغطيه. ثم حدث ما حدث، حدث أن باتت كلمة DNA تجري على ألسنة أهل هذا البيت أكثر من أسماء بعضهم البعض. وهكذا وفي لمحة من القدر تبدّلت الأدوار، صارت فاتن في غفلة من ياسر -بل وفي غفلة منها- صاحبة القرار. تتكلم فيتشكل الواقع كما تتصوره، ببعض الإقناع أحياناً وبلا حاجة لذلك أحياناً أخرى.

والآن، في الدورة الأحدث من اللعبة تبدلت الأدوار من جديد، أمسك ياسر بعجلة القيادة، بينما تراجعت فاتن للمقعد الخلفي، لاذت بسريرها وبجهاز اللابتوب بعد أن قال زكريا إن لآدم في منفاه في عزبة قرموط إمكانية الدخول على الإنترنت إن هو أراد، أمضت يومين فوق الوسادة، تراسل ابنها الغائب وتنتظر رداً لن يجيء.

وفي اليوم الثالث دخل زوجها الغرفة وقال:

- «إنتي لسه في السرير يا فاتن؟ يلّا يلّا.. قومي كده اغسلي وشك وتعالي نخرج نشتري شوية حاجات».

لم تجبه وتابعته من طرف عينيها وهو يفتش عن شيء ما في الخزانة. أغمضت عينيها حتى لا تضطر لسؤاله عما يريد. بعد قليل سألها هو:

- «مش كان عندنا فلوس مصري من آخر مرة نزلنا مصر؟ ما تعرفيش هي فين؟».

- «في الدرج جنبي.. ليه؟».

- «مانتي عارفة مطار القاهرة عامل ازاي.. هندوخ هناك على صرافة!».

جثا جانبها وأخرج النقود من الدرج، أغلقت اللابتوب واعتدلت في جلستها وراقبته بلا فهم، وهو يحصي النقود ويضعها في جيبه، ثم رشقها ببصره كأنه اندهش لوجودها.. ابتسم وقال:

- «إنتي هتقضيها إيميلات مع آدم ولا إيه؟! ده ابني وأنا عارفه! لا يمكن هيرد! ده إذا كان فعلاً عندهم إنترنت في عزبة بطوط بتاعتكو دي!.. اضحكي بقى ما تبقيش رخمة! ماخدتيش بالك أنا قلت إيه؟ باقولك نازلين مصر! أنا أخدت إجازة تبدأ بعد أربع أيام، ورايح أشتري التذاكر.. البسي وتعالي معايا».

- «نازلين مصر؟! إنت فعلا عايز آدم يرجع؟!»

اختنق حلقها بالدموع فلم تكمل.

- «ده سؤال بجد؟ أمال فاكراني ما صدقت إنه مشي ولا إيه؟!».

- «مش قصدي يا خويا.. بس..!».

- «فاتن.. إحنا كلنا في البيت ده وحدة واحدة.. كلنا محتاجين لبعض.. إنما الأهم من ده إن حتى لو آدم ما رجعش.. حقه علينا نروح لغاية عنده ونحاول نفهّمه، هو دلوقتي متلخبط وتايه ومتألم ومستحيل نسيبه كده».

- «طب انت مش خايف..؟».

- «لأ.. مش خايف، أنا كلمت محامي وقال إن الخطورة في حالة واحدة بس، إن يكون فيه بلاغ اتقدم، وده ما حصلش وإلا كان المحامي الملزق ده بطّل يطلب فلوس».

لطمت فاتن وجهها المبلل بالدموع وصرخت:

- «مش قصدي! أنا ما بافكرش في حاجة من دي.. أنا خايفة آدم ما يرضاش يبصّ في وشنا! مش هاستحملها دي يا ياسر ما اقدرش!!».

- «طب وماله؟! من حقه علينا بعد اللي حصل يزعّق ويبهدل فينا ويتهمنا بالسرقة والخطف والتزوير، مش دي الحقيقة؟! مش أحسن ما نهريه إيميلات واحنا قاعدين في آخر الدنيا؟! دي ماكانتش سنة ولا اتنين يا فاتن.. ده عاش عمره كله كدب في كدب».

- «الكلام ده سهل عليك انت! وقت الجد أنا اللي طول عمري قريبة منه! لو مصدوم في حد هيبقى أنا.. وهيبقى هو واخواته وبهانة وجوزها والبلد بحالها كلهم عليّ!!!».

- «وأنا رحت فين؟ أنا مش هاسيبك.. فاتن، أنا ما اقدرش أوعدك إن آدم يرجعلنا.. لكن أوعدك إن أنا وانتي هنواجه الأزمة دي سوا زي ما واجهنا كل حاجة قبل كده في حياتنا!».

وسط الحيرة والشكوك والتيه أشرقت أمام فاتن حقيقة واحدة مؤكدة: أن ما قاله زوجها للتو هو أجمل ما قاله لها على الإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-٣٥-

فـي ذلك اليوم، عندما دخل الثلاثة -فاتن وياسر وزكريا- دِروة بيت عبدالعليم في عزبة قرموط كان منظرهم أكثر مدعاة للعجب من المرة السابقة، فياسر متوتر للغاية، يداه مكوّرتان ومفاصل أصابعه مبيضّة، يتمتم بصوت غير مسموع كأنه يتمرّن على التفوّه بكلمات حفظها سلفاً. وفاتن.. عيناها حمامتان تطيران هنا وهناك، عينان خاويتان من كل شعور. وحده زكريا الذي بدا مرتاحاً، عانق عبدالعليم وارتمى في حضن بهانة، سلم على إخوته وسأل ببساطة يحسد عليها عن آدم وبلال. «زمانهم جايين في السكة يا ابني» أجابه عبدالعليم.

طالعت بهانة وفاتن بعضهما البعض في صمت، ثم اقتربت فاتن واحتضنت بهانة برفق وقالت:

- «ما تخافيش مني، مش كل ما تشوفيني هاكون جاية آخد ضناكي.. آدم كبر وكل حاجة اتعرفت.. واحنا جايين نستسمحك ونستسمحه».

أما ياسر فلم يشر هذه المرة لوزير أو يلوّح بسفير. بل كان نموذجاً لرجل يعرف قدر مضيفيه. لم يقرّ فقط بجرمه هو وفاتن بل عرض أن يتوجّه الآن مع «عم» عبده و«الست» بهانة -كما خاطبهما طول الوقت- ومحاميهما للنيابة، وليأخذ القانون مجراه. قال:

- «ده أنا كنت متوقع نلاقي أساميا على قوائم ترقب الوصول!».

بطبيعة الحال، لم يكن ياسر سعيداً لتقديم هذا العرض، بكل تأكيد كان يتمنى أن تحدث معجزة ما تمنع مصيراً مظلماً كهذا. وعندما أفرغ ما في صدره تحدث عبدالعليم ووقعت المعجزة. قال إن آدم لم يطلب شيئاً منذ وصل سوى ألا يقدَّم بلاغ في الدكتور والدكتورة، وأردف:

- «الواد ابن أصول، واتربى صح».

سكت عبدالعليم قليلاً ثم أضاف:

- «إنما المحامي.. آني ما اضمنوش! لما رحناله نسحب الورق قال علينا مجانين، وقال إن الورق ده كان هيأكلنا الشهد.. آني يعني.. ما استبعدش يكون ناوي على حاجة!».

لكن ياسر لم يَبدُ قلقاً، بدا فقط منكسراً، خاشعاً أمام جميل بالكاد تجرّأ أن يتمناه، ولما تحقق أصابه ذلك بالذهول.

وأخيراً وصل آدم، في مسحة عين حَوَت فاتن الوجه.. الشعر.. الكفين.. الصدر، كم نبت شاربه في أسبوع! كانت هناك معه أمام مرآة الحمام عندما حلقه لأول مرة، صوره والصابون يغطي ذقنه لا تزال على هاتفها. ووجهه.. انقشعت عنه حيدة القمح وحلت محلها سمرة الطين. يرتدي فانلة تشيلسي الزرقاء التي اختارها هدية في عيد ميلاده الماضي، ويرتدي الجينز الذي كان أول قطعة ملابس يشتريها بنفسه دون أن تصحبه ماما. اختلطت ضحكتها بالبكاء، وفتحت ذراعيها وانتظرت ولكن ليس طويلاً، فبعد لحظة تردّد احتضنها هو الآخر بقوة.

جلسوا في دائرة تحت شجرة التين، فاتن بجوار آدم.. تحتضنه ولا تكاد ترى غيره. سمعت زوجها يتحدث بطلاقة، يتدفق على لسانه أخيراً كل ما أعدّه من حجج: «دي لحظة اختيار.. أنا وأمك، مع كل عِرفاني للست بهانة، أنا وأمك اللي ربتك من وانت عمرك خمس دقايق.. اخترنا اللي عملناه، كنا عارفين التمن واخترنا ندفعه، لو سجن اخترنا ندخله، المفروض أقولك دلوقتي إني خجلان من اللي عملته.. بس لساني مش ممكن يطاوعني أقولها.. اللي عملته يا آدم هو اللي خلاك تدخل حياتنا!».

وسمعت بهانة تقول:

- «الدكتور بيقول إن جايلك منحة ببلاش.. تتعلم وتبقى دكتور انت كمان قد الدنيا.. ما جبتش سيرة ليه يا ضنايا؟».

وعندما حانت اللحظة التي تخشاها أكثر من أي لحظة أخرى، عندما التفت لها آدم واختصّها بالسؤال الأهم على الإطلاق لم تنهَرْ كما توقعت، بل أجابت بصوت أصفى بكثير مما يعتمل داخلها:

- «الحقيقة؟ الحقيقة كمان ممكن تهدّ بيوت.. ممكن تقتل.. أنا عارفة إن اللي باقوله هيصدمك، بس الكدب ساعات بيبقى رحمة.. الأنانية ساعات بتبقى حب!».

نظر آدم للأرض شارداً. اعتصر الإشفاق قلب فاتن وهي ترى كاهله مثقلاً بالهم. ثم بدأ يتكلم:

- «أبويا وأمي اتحرموا من ابنهم.. وأنا كمان اتحرمت منهم».

هوى قلبها وتبادلت نظرة جزع مع ياسر.

أردف آدم:

- «أنا لازم.....».

قاطعه عبدالعليم:

- «يا ابني اللي انت عاوزه هيكون.. بس الأول هأقولك كلمة تحطها حلقة في ودانك.. ما فيش حاجة اسمها لازم.. الشيء الوحيد اللي لازمن البني آدم يعمله في دنيتنا دي هو إنه يموت».

ولاحقاً، عندما تقدّم الليل قام ياسر وفاتن للمبيت في بيت العمدة حجازي والحاجة أسمهان. استأذنهما زكريا في قضاء الليلة في بيته القديم وقبلا بلا تردد. سأل ياسر زوجته:

- «نشوف عربية ولا البيت قريب؟».

أجابت:

- «هو مش قريب قوي.. بس ليالي الصيف في البلد حلوة!».

قال آدم إنه سيسير معهما حتى بوابة البيت. سار الثلاثة بصمت في طرقات القرية المعفرة. ثلاثة غرباء لا يستوون: غريب ومغتربة وثالث لم يقرّر بعد. وعندما حانت اللحظة التي يجب أن يعود فيها آدم أدراجه قالت فاتن:

- «آدم يا حبيبي.. إنت أقنعتهم ازاي يتنازلوا عن القضية.. أنا مش عارفة أقولك إيه».

لكن زوجها قاطعها:

- «بس بس بس! إنتي هتشكريه ولا إيه؟»

نظر لآدم وأردف ضاحكاً:

- «أكيد طبعا يعمل كده، الواد ده تربيتي!».

أضاء وجه آدم بابتسامة خجولة وقال:

- «إنتو قاعدين في مصر لإمتى؟».

حدقت فيه فاتن وانعقد لسانها. قال ياسر:

- «قاعدين شوية يا سي آدم! إحنا قاعدين على قلبك؟! بعد يومين عيد ميلادك انت والواد زاك.. نحتفل بيكو، ونحيي أربعين جدتك أسمهان الله يرحمها.. ولسه معانا شهر على دخول المدارس.. وييجي شهر ونص على دخول الجامعة!».

مدّت فاتن يديها فاحتضنت رأس آدم ومسحت بإبهاميها حاجبيه. قالت: «تعبان جداً! عينيك بتغمض لوحدها.. حبيبي إنت محتاج تنام»، ثم قبّلت جبينه.

استدارا وأمسكا بيدي بعضهما البعض، راقبهما آدم حتى دخلا البيت، وظلّ هو واقفاً في منتصف الطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شـكر..

أود أن أشكر أبي الذي علمني القراءة، الذي اشترى لي الكتب، الذي تظاهر بأنه لا يرى القصة التي أخبّؤها داخل كتاب المدرسة. كنت أحبّذ كثيراً لو أنك حيٌّ وبخير.

وأمي، التي لا يكتب مثلها أحد، وليس في عطائها أحد.

وأبنائي الرائعين: «مصطفى» و«فريد» و«سليم»، سهرنا عشرات الليالي نُقلّب في سير أحداث هذه القصة.

وأود أن أشكر شقيقتي «منار» وأبي الروحي «صلاح زكي أحمد» على الدعم والنقد.

ويهمّني أن أشد على أيدي المغامر «أحمد مهنى» والمبدع «أحمد سلامة» وسائر الأعزاء في دار «دوّن»، وصديقي «محمد الغزالي» الذي جمعنا.

شكر خاص لجواز سفري، ضياعك في متاهات البيروقراطية لشهور وشهور أتاح لي السياحة في عالم «فاتن» و«ياسر» و«آدم» و«زكريا»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

إهداء

-١-

-٢-

-٣-

-٤-

-٥-

-٦-

-٧-

-٨-

-٩-

-١٠-

-١١-

-١٢-

-١٣-

-١٤-

-١٥-

-١٦-

-١٧-

-١٨-

-١٩-

-٢٠-

-٢١-

-٢٢-

-٢٤-

-٢٥-

-٢٦-

-٢٧-

-٢٨-

-٢٩-

-٣٠-

-٣١-

-٣٢-

-٣٣-

-٣٤-

-٣٥-

شـكر..